غروب وكتابة

هيفاء بيطار

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

هيفاء بيطار

غروب وكتابة

مجموعة قصص

دار النهار

© دار النهار للنشر، بيروت
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى، أيلول ٢٠٠٣
ص ب ٢٢٦ ١١، بيروت، لبنان
فاكس ٩٦١-١-٥٦١٦٩٣
ISBN 2-84289-446-4

إلى أخي جبرائيل

المحتويات

١ . سراب ١١
٢ . جسد بلا رائحة ٢٣
٣ . جميلة ٣٥
٤ . عذاب ٤٣
٥ . السيدة أجحش من ك ٥٣
٦ . العقاب ٦٣
٧ . حب في زمن العولمة ٧٣
٨ . وَلَهْ ٨٥
٩ . الصياد ٩١
١٠ . رأس سنة مختلف ١١٣
١١ . غروب وكتابة ١٢٩
١٢ . الى روح أحمد ١٣٥
١٣ . مدرسة الأمل للمعاقين ١٤٥
١٤ . صندوق الضمير الأزرق ١٥٣
١٥ . ظل أسود حي ١٦٥
١٦ . امرأة من غيم ١٧٧

١٧ . ما بعد ١١ أيلول ١٨٧
١٨ . أحلام على الريق ١٩٧
١٩ . إلى آيات الآخرس ٢٠٩

۱

سراب

عرفتُ كريمة منذ زمن بعيد، بل لا يمكنني تذّكر طفولتي، إلا ووجه كريمة المرتشح بالكآبة دوماً يحف بذاكرتي. . . لم أكن وقتها أفهم أن الأطفال يصابون بكآبة. كنت أشعر بأنّ كريمة مختلفة عنا، لا تندمج بألعابنا وشيطنتنا الطفولية، لأنها هكذا نسيج وحدها. . . جمعنا التفوق الدراسي، فوضعنا في مقعد واحد طوال مرحلة الدراسة، لكني ورغم حبي الشديد لكريمة، كانت تنتابني رغبة مستمرة بالهروب منها وتشعرني تلك الرغبة بتأنيب الضمير وخصوصاً أني لم أجد لها سبباً. كانت كريمة في حياتي كصوت الضمير الفظ والجاف، لم أكن أجد مانعاً أن أغشّ قليلاً في الامتحانات، وأن أهمس لصديقاتي بأجوبة أسئلة لا يعرفنها، كان من المستحيل أن أتجاهل نظرة رجاء في عيني صديقة لي. . . كانت كريمة تجّن من سلوكي، تصرخ بي مؤنبة: أنت ترتكبين الخطيئة وسيعاقبك الله على ذلك. . . أحسُ بَالخزي فكلام كريمة

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

صحيح، تعاقبني كريمة عقاباً قاسياً متقمصة دور الله، فتجاهلني لأيام، ونرفض الجلوس بجانبي في مقعد تفوقنا المشترك فأضطر لأيام لاستسماحها وأعدها وعوداً - أعرف أني سألحت بها - أني لن أكرر الخطأ نفسه.

كانت كريمة منذ طفولتها مبهورة بفكرة الخطيئة الأصلية ولم أكن أجرؤ على أن أبوح لها بأنّي لستُ مقتنعة بتلك القصة عن سقوط آدم وحواء، ثم إذا سقطا فما ذنبي أنا؟! يا ويلي لوقلتُ هذا الكلام لكريمة، كريمة التي تراقبنا بعيون قاسية متقصية خطاياناً وزلات لساننا، فأن نتهامس في الصف نغتاب المدرِّسة، لباسها، تسريحتها، فهذا خطيئة بنظر كريمة، أن نقفز عن سور المدرسة هرباً من درس التربية لأننا لا نطيق أستاذها ورائحته المقززة فهذا خطيئة، صرنا نشعر بأنّ كريمة ماثلة في حياتنا كالعقاب، وحين طلبت إلينا مدرِّسة الرسم أن نرسم أي شئ يخطر ببالنا رسمت كريمة إنساناً صغيراً لا يحتل سوى زاوية صغيرة من الصفحة، وخصا كبيرة مسلّطة فوق رأسه تحتل الصفحة بكاملها!

في المرحلة الإعدادية، بدأنا نتفتح ببطء كبراعم، منتشيات بأحلام المراهقة الوردية ومتأثرات حتى ذرف الدموع بالأغاني الطافحة بدموع العشاق، ولم أكن أشعر بالإثم حين أتخيل نفسي أتبادل القبلات والمداعبات مع الشاب الحلم، الذي تتبدل صورته حسب ممثلي ومطربي تلك الأيام.

تجرأت ذات يوم وحكيت أحلامي بالحب لكريمة، حادقت إليّ مرتعبة وقالت أن ما أفعله هوالزنى العقلي، كانت كريمة تنظر بازدراء إلى العلاقات العاطفية واصفة إياها بالميوعة

والانحلال، شعارها في الحياة: «يجب ألاّ يلمسني إلا الرجل الذي سأتزوجه ولن أسمح له بلمسي إلا بعد مباركة الكاهن، وبعد أن تحل علينا نعمة سر الزواج».

كانت كريمة تعيش في بناية وهمية تسميها بناية الأخلاق، وكل ما هو خارج هذه البناية رذيلة وخطيئة، في الرحلات المدرسية كنتُ أراقب كريمة سراً، كيف لا تستطيع أن تنطلق على سجيتها، فتصفق بطريقة آلية وتغني بصوت فاقد الحماسة وكم تذهلني حين ألحظ معاناتها في رسم ابتسامة. . . . آه هل رسم ابتسامة صعب لهذه الدرجة!

فازت كريمة بالمرتبة الأولى على المدينة في فحص الشهادة الثانوية، ولمع اسمها كرمز للاجتهاد والالتزام، لم أرَ كريمة منتشية فخورة بنفسها إلا في تلك المرحلة، كانت تمشي وكأنها تطير وراء أحلامها، استحقت منحة دراسية لتفوقها واختارت هندسة الكومبيوتر.

افترقنا طوال المرحلة الجامعية فلم أكن أراها إلا في الصيف، لقاءات سريعة مبتورة وفي كل مرّة أراها يدهشني تعبير جديد في وجهها، كأني لا أعرفها، هناك وجوه كلما رأيتها تتكشّف فيها سمة جديدة، غريب وجه كريمة كم يتلون بألوان الكآبة الداكنة!

فاجأتني ذات مساء باتصالها، كانت منهارة وطلبت أن تراني حالاً، لم أستطع تأجيل الموعد إلى الصباح بسبب بكائها الهستيري، ذهبتُ إليها في منتصف الليل، بدت كشبح مجنونة، ناحلة يلمع شرر مشتت في عينيها، تبكي كالطوفان وتمسح دموعها بمنشفة بعد أن نفذت علبة المناديل الورقية

المجعدة والمبتلة بجانبها، كشفت لي جرحها العاطفي الكبير، فقد أحبت زميلاً لها حتى العبادة، بادلها الحب، لكنه هرب منها مفضلاً عليها صديقتها، لم أستطع أن أفهم أسباب هروبه من نوبة دموعها لكنها قالت إنّه طعنها في قلبها طعنة مميتة وهجرها لمجرد أنها أصرّت على الحفاظ على شرفها، لم تكن تسمح له بلمسها وتقبيلها، فالغزل ممنوع قبل أن تحلّ عليهما النعمة الإلهية المتجسدة في سر الزواج.

وحين سألتها مستغربة: لكن يا كريمة ما الخطأ أن يغازلك وهو حبيبك؟

صرخت بي وهي تحدق إليّ بخيبة أمل بعينيها الحمراوين بلون الدم: حتى أنت، حتى أنت! اعتقدتُ أنك ستقدرين موقفي وتفهمين استماتَتي في الحفاظ على عفتي.

تزوج حبيبها من فتاة عاشت في علاقات عاطفية قبل زواجها.... لم تفهم كريمة كيف فضّل حبيبها فضلات الآخرين على فتاة لم يلمسها أحد من قبل! أهو مجنون! ولسنوات عانت آلام الحب السرطانية وغرقت في جحيم اليأس، لم تكن ترى في العالم حولها سوى عالم السقوط وكل ما يحدث حولها إثم في إثم، لكنها لن تفرط بعفتها التي هي مثلها الأعلى في الحياة، تلك العفّة المتعفنة والتي تفوح رائحتها القذرة من جسد كريمة.

أُرسلت كريمة إلى لندن لتتابع دراستها في هندسة الكومبيوتر وتحصل على الدكتوراه فرحتُ لسفرها وأكدّتُ لنفسي أن كل عُقد كريمة سوف تُحلّ هناك، لكنّ كريمة ازدادت انغلاقاً على نفسها في لندن، حصنّت نفسها ضد العالم

الجديد الذي هو أكثر انحلالاً وتفلتاً من عالمها هنا، تبحث عن أمان زائف وسكينة مخادعة، لم تكن تعي ذلك الجانب المازوشي في شخصيتها، يبدو أنها تتلذذ في تعذيب نفسها ومقاومة غرائزها ورغباتها، ولم تكن تعرف أنها تُغطي تلك المازوشية بمشاعر زائفة وتعويضية من الإحساس بالسمو والكمال، إنها تحافظ على نقائها وعفتها الروحية والجسدية وتستحق وسام الشرف بجدارة، إنها تواجه العالم بطاقتها على الكراهية والنفور وليس على الحب والقبول وهي تزدري كل ما حولها وتحتقره لكنها في حقيقة الأمر تزدري نفسها.

كريمة تفور بالأحقاد للناس العُصاة والخطأة حولها، ترتاب فيهم إلى حدّ المرض وحين تجلس مع زملائها تلتزم وضع تحفّز واستنفار لتحصي عليهم هفواتهم، تتضخم تصرفاتهم العفوية في ذهنها وتتحول إلى سياط ألم تعذبها وتظل أياماً مستنفذة غضباً وحقداً بسلوك عفوي لأحد زملائها تجد فيه إهانة لها.

كريمة لا تعرف الفرح والعفوية لقد حكمت على نفسها بالسجن في تلك الاستقامة المتصلّبة. حين أفكر بحياة كريمة كنتُ أحس أن الخطيئة نعمة، خطيئة هذه الإنسانة أنها لم ترتكب خطيئة، لم تغش في امتحان، لم تسمح لشاب بلمسها، لم تكذب يوماً على والديها... إنها تخضع لسلطة مهيمنة تُرخي ثقلها على كيانها، سلطة مُبهمة من مصدر علوي تشعر بوطأتها تُطالبها بالطاعة التامة من دون مناقشة، سلطة أنانية، مستبدة، ذكية لا تستخدم الضغط القاسي بل تستعمل

الإغواء المستمر اللطيف المخاتل.

تشعرها بأنّها الصحيح وبأنّ العالم حولها خطأ، الحياة بالنسبة لكريمة أزمة عابرة وبعدها الحياة الحقة والخلود... الناس حولها خطأة يستحقون العقاب ونهاية العالم قريبة.

تشعر كريمة بأنّها تثبت وجودها بنفي كل شئ ورفضه، بدأت معاناتها الصحية تتكشف في الليل حين يجافيها النوم بسبب خفقان قلبها الشديد، قلب متمرد لكنها تنجح بلجمه وبدأت مرحلة الآلام المبهمة تنتابها، صداع لا يرحم، آلام في الظهر تشكو وتشكو والأطباء لا يجدون سبباً لشكواها.

أكملت كريمة الثلاثين وهي تعيش في صرح بناية أخلاقها، لكن هذا الصرح الضخم أخذ يتزلزل بقوة فقد هاجت غرائزها بثورة جامحة كادت تطوح بحصانة ثلاثين سنة من الجهاد في سبيل العفة... لدرجة خافت من الجنون، قالت لي ذات يوم في جلسة بوح خاصة: تصوري كنتُ كحيوان مربوط برسن، أصرخ بصوت كالفحيح: أريد أن أُضاجع، أريد أن أُضاجع.... كنتُ أمشي في الشوارع وخيالات جنسية مستمرة تحفّ برأسي وأتخيلّ بشكل مستمر قضيباً يلجني على نحو غامض، صرتُ أمارس العادة السرية بجنون، وأتفرج على أفلام موغلة في الفحش، صار الجنس كاللهاث مطلب جنوني، صار الجنس عنفاً. صراخ أجساد جائعة لم أعد أتخيل قبلات لطيفة بين عشاق بل عراك وعض وضرب ودماء نازفة... كنتُ أبكي طوال الليل بصوت كالأنين وأنا أهرس ثديي وفخذي بشراسة، متمنية لو يلتهمني رجل أو ألتهمه.

أرتعب وأنا أسمع اعترافات كريمة، أبتلع ريقي الجاف

وأسألها: كريمة، لمَ تعذبين نفسك هكذا، لِمَ لا تخوضين تجربة الجسد... تَنظر إلي بشفقة:

– لا، لن أسمح للشيطان بأن ينتصر علي.

– لكن الله خلقنا هكذا، خلق فينا الشهوة والغريزة، الخلق إبداع، الخلق رؤية و....

تقاطعني بحماسة: مسكينةٌ أنت، أتعرفين الشيطان له رؤيته وإبداعه أيضاً، إنه يهّيج غرائزنا كيَ نسقط في الخطيئة، لكنني سأقاوم.

قاومت كريمة سنة هيجان الغرائز، قاومتها بالصيام والفاليوم، والمشي حتى الإنهاك، كانت تنجح بصورة مؤقتة في تخفيف ثورة انفعالاتها القاتلة.

تظل كريمة في حالة توبة لكن توبتها لا تكتمل لأنها تقع مجدداً في براثن الشهوة، ذات يوم أرسلت لي من لندن رسالة عبر الانترنيت هي عبارة عن سطر واحد: «أشعر بأنّي أعيش في هذه الدنيا بلا سبب معقول». أوّاه كم أتحّسر على نفسي.

حين لمحّتُ إلى كريمة أن تطلب استشارة طبيب نفسي، هزئت بي قائلة:

– ماذا سيقدم لي الطبيب والله معي.

ما كنتُ مقتنعة بتديّن كريمة، فما إقبالها المبالغ به على الدين سوى تعويض عن حب مفقود، وحين حصلت على الدكتوراه وعادت الى الوطن، بدأت تثير استنكار طلابها ونفورهم بغرابة ملاحظاتها وسلوكها، فلا تكف عن انتقاد لباس طلابها وضحكهم الخليع وتعليقاتهم غير المحتشمة... حتى أن إحدى طالباتها صرخت بها ذات يوم: أنتِ المعقّدة،

ولستُ أنا المنحلّة، لم تعاقب طالبتها بل نظرت إليها باستخفاف وشفقة قائلة: ليسامحك الله.

قدّمت كريمة استقالتها وأدارت ظهرها للحياة، أهملت العلم الذي أبدعت فيه، كفّت عن قراءة الأدب والشعر الذي تتذوقه وانصرفت إلى الكتب الدينية، خصوصاً تلك التي تحكي عن سير النسّاك، خسرت الكثير من وزنها لأنها قتلت شهيتها إلى الطعام حتى أخذ بريق الجنون يلتمع في عينيها وهي تعتقد أنه بريق القداسة، صار لها وجه ناسكة إنما بلا تعبير قداسة، كنتُ أشعر بأنّ شفاء كريمة سيكون في أن تتعرى بين أحضان رجل دافئ يشفي جسدها المتشقق من نقص الحب بدفء يديه، يعرف كيف يخرجها من عفتها المتعفنة.

في دير بعيد رُسمت كريمة راهبة وهي في الرابعة والثلاثين من عمرها، لم تبال برجائي ورجاء من يحبها في أن تعود للتدريس في الجامعة، لم تفهم حججنا أنّه من الجريمة أن تضّن بعملها وعبقريتها الهندسية على طلابها، لحقتها بعد أشهر إلى الدير متحملة وعورة الطريق وخطورته وهناك رأيتها جالسة على مقعد خشبي تحت شجرة وحيدة مثلها، تطرّز! أحسستُ بالاشمئزاز قلت لها ساخرة:

- أتطرزين بدل أن تعطي دروساً في الجامعة.

قامت تحتضنني ودموعها تطفح من عينيها.

- يا صديقة طفولتي الحبيبة، أدعو من الله أن يدخل الإيمان إلى قلبك.

أبعدتها عني ونظرت إليها بغضب: اسمعي، هذا ليس إيماناً بل هروباً. كريمة لماذا تفسدين حياتك؟! لماذا لا

تغمسين يدك في لحم هذا الكون؟!!.

ماذا تفعلين خارج العالم، تطرزين، تقلّمين الأشجار والزهور، أنت حاصلة على دكتوراه في هندسة الكومبيوتر، خسارة ألف خسارة ألا تنيري عقول مئات الطلاب بعملك.

كانت تنظر إلي بشفقة حزينة، وجدتُ نفسي وأنا أنفجر في نحيب حار كتعبير عن إحساسي بالعجز، جلست على المقعد مهدودة القوى، اقتربت كريمة مني راسمة إشارة الصليب ثلاث مرات على رأسي، مبرطمةً بصلوات غير مفهومة، كان صوتها متهدجاً حزيناً ويشبه وشاحاً ممزقاً، مدت يدها لتمسح دموعي، صعقت كانت يدها كالثلج.

ابتسمت، ثم تحول بكائي لضحك عصبي.

سألتني بحنان: لماذا تضحكين؟!

أخذت أنفخ على يدها الثلجية بأنفاسي الدافئة، قلت لنفسي: إنه صقيع العفة.

٢

جسد بلا رائحة

لماذا يتزوج الكهول؟! هذا ما كانت تفكر به وهي جالسة على الأريكة الكبيرة في الصالون الفسيح، والقاطع الخشبي العريض يحجب زوجها عنها، لم تكن ترى منه سوى قدمه العارية تنتهكُ نظرها بقبحها، بأظافرها الطويلة المهملة الشبيهة بمخالب خشبية، وظفر الإبهام المسوّد من الفطر، نبهها جلده السميك المبقّع كم يشي الجلد بالعمر، لم تستطع أن تُبعد نظرها عن تلك القدم المقززة والتي يمررها على فخذيها وساقيها في أثناء حفلة الغرام المريعة بينهما. أحست أن أصابع قدمه الخمسة أشبه بعيون مشوهة تحدق إليها، وكأنها تذكرها بأنها لو وُفقّت بزوج شاب لما تزوجت العجوز. هزت رأسها مذعنة للحقيقة وأقرّت بأنّها تزوجته بملء اختيارها زواج العقل والمصلحة بعد أن يئست من الحب المتكافئ والمنزّه من الأغراض، كانت في منتصف عقدها الرابع تعيش في أوضاع أسرية خانقة محشورة مع تسعة أشخاص في غرفتين، أم وأب

مريضين دوماً وغارقين في الكآبة، زوجة أخيها مع أطفالها الخمسة تندب حظها طوال الوقت وتشكو سوء الحظ، هي التي شجعت زوجها على العمل في التهريب فأودع السجن بعد العملية الأولى. . . أخوها الأصغر طالب الجامعة العصابي الذي لا يجد مكاناً لكتبه ويعجز عن الدراسة في هذا البيت الحقير وهي العانس التي عانت خيبات الحب المتنوعة وفقدت أملها في الحصول على زوج يقاربها في العمر ويكون صديقها في معركة الحياة القاسية، في هذا البلد المتخلف لا أحد يستغرب أو يستنكر أن يتقدم رجل في الستين أو السبعين للزواج من امرأة في الثلاثين أو الأربعين! الرجل لا يعيبه عمره، زواجها كان مُدبراً عن طريق وسيط، صديق أخيها منذ الطفولة أقنعها بالزواج من المحامي السبعيني المشهور والثري، سيؤمن لها حياة كريمة وسيعطف على أسرتها. كان المحامي رجلاً مثقفاً معروفاً بمؤلفاته في مجال القضاء، لا تنكر أنها أحست بنشوة انتصار وهي ترى رجلاً مرموقاً في المجتمع يتقدم لخطبتها، ورغم سنواته السبعين فإنه بدا أنيقاً في بذلته الكحلية وربطة عنقه القرمزية.

قبلت مدرسة الابتدائية الأربعينية الزواج من المحامي السبعيني علاقة اعتقدت أنها متكافئة إلى حد ما، فهو يقدم لها الاستقرار والثراء وهي تعتني به في شتاء عمره، لكنها صُعقت منذ الأيام الأولى، فالعيش معه تحت سقف واحد كان يفوق تصوراتها وقدرتها على الاحتمال، فمن الليلة الأولى صفعها ترهل جسده المُقرف أحست أنها خُدعت لأنه كان يبدو معقولاً ببدلاته الأنيقة، أما وهو عارٍ بكرشه المندلق الرخو وثدييه

المتهدلين وأشعار جسده القليلة المبعثرة المصفرة، ورقبته المجعدة ورموش عينيه وحاجبيه اللتين تساقطت أشعارهما فهذا ما جعلها تحس بالغثيان والقرف إلى حدّ أنها تمنت له الموت من كل قلبها وحقدت عليه لأنه تجرأ وتزوّج! كان متعطشاً لجسدها، لجسد امرأة لا تزال في بهائها، في قمة نضوجها برائحة الأنوثة المتكثفة في جسد امرأة أربعينية رشيقة ورياضية لم تتحمل قبلاته العشوائية، أحسته نسي كيف يتبادل العشاق القبلات، انتابها إحساس أنه يعتمد على مخزون ذاكرته الغرامية عساه يُعيد الحركات ذاتها التي كان يمارسها حين كان شاباً، تهربت من شفتيه اللحميتين المهترئتين واللتين أحستهما كممصين، بأن وجهتّ وجهه إلى صدرها ودفنته بين ثدييها، بدا منتشياً حتى الضياع بالنهدين، لم ينفك عن مداعبتهما وعصرهما حتى صرخت من الألم قائلة وهي تكظم غيظها: ليس هكذا. . . . أقصد ليس إلى هذا الحد.

لكنها أرغمت نفسها على مداعبته قليلاً مدارية رجفة تنتابها بسبب شدة توترها وقمعها العنيف لقرفها منه، حاولت أن تفكر وجسدها عار بجانب جسده الذي يحرض قرفها كل لحظة. إنّه كريم معها أعطاها الفيلا وسمح لأسرتها بأن تسكن الشقة الواسعة التي يملكها في طرف المدينة كما أنه يسمح لها بأن تصرف بلا حدود على لباسها وأغراضها الشخصية.

غيّر جلسته فغابت قدمه المقززة عن نظرها، كان يتابع حواراً سياسياً في التلفاز وهي جالسة بالوضعية ذاتها على الأريكة مستغرقة في خيالاتها الكئيبة، تذكرت أنها سمت علاقتها الجنسية به «بمضاجعات البول» لأنه كان يبللها ببوله

رغماً عنه لأنه مصاب بالسلس البولي ويداري خجله بمزاح ثقيل، ولم يكن يجد حرجاً في إحضار منشفة ليجفف جسدها الملطّخ ببوله، كانت تتحمل كل هذا القرف مذهولة بقدرتها على التحمل، وراغبة في الوقت ذاته في التعرف على المظاهر المريعة للشيخوخة مكررة سؤالاً يزداد إلحاحاً في نفسها: لماذا يتزوج الكهول؟! كانت تضطر أن تعتني به في أثناء حفلة الغرام الزائفة كما لو أنها تعتني بمريض وحين كانت أنفاسه تتلاحق لاهثة كأنه مصاب بالربو كانت تخشى أن يموت بين ذراعيها.

لكنها بعد أشهر من زواجها استطاعت أن تجد نوعاً من التوازن في علاقتها معه فهو لا يحتاج جسدها إلا في أوقات متباعدة كل أسبوعين أو اكثر، صارت تبالغ في الشراء تتفرج على نفسها كيف تشتري وتشتري كمن يرغب في سدّ فراغ كبير في روحه، لكن عبثاً، ثم ترمي بمشترياتها في خزانتها، وغالباً ما تنسى ما اشترته فتعيد شراء الأغراض ذاتها بعد أيام!.

كل صباح كانت تتأمله بعين متفحصة وتقيس المسافة بينه وبين الموت، حيرها إحساسها بالإرهاق الشديد منذ الصباح رغم ساعات النوم الطويلة، لكنها مع تعاقب الأيام عرفت سر إرهاقها، فالصباح يبشرها بقدوم نهار كامل مع العجوز، ثم بدأت مشاعر جديدة غير متوقعة تداهمها فتحس كم هي تافهة، لم تشعر من قبل أبداً بأنّها تافهة رغم قسوة الحياة، أما بعد زواجها منه فبدأ هذا الشعور يسيطر عليها فكل يوم تقوم بالواجبات ذاتها، تحضير فطوره الخاص المعتمد على القمح وعصير البرتقال وبعض قطع الفاكهة المجففة ثم إعطاءه سلسلة من الأدوية التي يريد أخذها من يدها حبة بعد حبة ومن واجبها

أن تحدثه في الصباح أي كلام فهو يحب الثرثرة الصباحية، تتفرج على نفسها كيف تتكلم شاعرة بفراغ كلامها، مدركة كيف تخرج الكلمات منها غريبة فتستغرب كيف تلفظها بعد زواجها قامت هناك غربة بينها وبين اللغة فكلامها، شيء وروحها شيء آخر، نمت لديها هوايات غريبة فصارت متلهفة لمتابعة أوراق النعي، تسجل إحصاءاتها في دفتر وكم أحست بذعر حين كانت نسبة وفيات الشباب بين الأربعين والخامسة والأربعين تفوق بثلاثة أضعاف وفيات الكهول بعد السبعين، أحست بطريقة ما أنها يمكن أن تموت قبل زوجها أرغمت نفسها بالقوة على الامتناع عن تلك العادة الغريبة في ملاحقة أوراق النعي.

آه ما أسخفها حين تشعر باليقين أنه سيموت قريباً وسترث الكثير منه وستسكن في الفيلا الفخمة وحدها، كانت تفهم العيش أنه كثافة وامتلاء، أما الحياة مع العجوز ففراغ، أيامها معه أشبه باسفنجة ممتلئة بالتجاويف الفارغة وفي أوقات متباعدة كان يصحبها لزيارة بعض أصدقائه في جيله كهول على حافة الموت مطرودون من الحياة - هكذا تحسهم - تحتضر من الضجر واليأس وهي تصغي لأحاديثهم عن العمليات الجراحية التي تعرضوا لها من زرع عظم عنق الفخذ إلى زرع عدسة داخل العين إلى تركيب سماعة في الأذن بسبب الصمم... وإذا غيروا تلك المواضيع فيتحدثون عن أصدقائهم المرحومين الذين سبقوهم إلى الدنيا الثانية! ذات يوم تجرأت وسألته إن كان يخشى الموت فأخبرها أنه يرتب لموته كما يرتب لسفرٍ ما.

لم تكن تتوقع أن تصير فظة وأنانية بعد زواجها به، كانت تنتقي حبات الفاكهة الطازجة وتأكلها تاركة له الفاكهة الذابلة مثله وحين يوصيها لتشتري له غرضاً ما تشتري دوماً أرخص الأنواع كأنها تقول لنفسها: يكفيه هذا النوع الرخيص وهو على بعد خطوات من الموت، لم يكن يعترض على سلوكها لأنه أساساً لا ينتبه لشيء، رجل ماتت رغباته حتى شهوته الجنسية ذابلة، إنها ذيول رغبة متبقية من أيام الشباب بقايا مشاعر خبرها ذات يوم وعايشها.

ففي قلب إشتهائه إياها يحس بتعب يكفيه من جسدها قبلات يابسة ومداعبات لا مجدية، كانت تتأمله كيف يتفرج على جسدها كما لو كان مراهقاً في تجربته الأولى، إنه يحس برهبة تجاه جسد أنثى تضج بالعافية والشهوة.

جعلها تحس كم أن الشهوة في حالتها صراع مع النفس لا يرحم، يزداد استعاراً كلما أرادت لجمه، قبل زواجها منه كانت قد نسيت عالم الرجل بسبب أزمات الفقر المهينة التي تنتهكها كل لحظة، كل تفكيرها كان مشغولاً بإيجاد حلول للأزمة الاقتصادية الخانقة في أسرتها، لكن بعد أن تدفق المال بين يديها وبعد علاقتها مع زوجها الوهمي وجدت نفسها تفكر بالرجل، تتوق لرجل فتي تفنى بين ذراعيه، يمتلكها ويملأ فراغ روحها. صارت تلجأ لحضور أفلام خلاعية لتمتع نفسها مستسلمة لكآبة المتعة الانعزالية متأملة بعينين أسهدهما الحرمان على أجساد رجال شبان، وكم كانت تطيل الوقوف عند باب غرفته تتأمله غافياً بحقد شاعرة كم هو عبء عليها، وفي المساء حين تقف أمام المرآة متفحصة وحدتها المثالية

ماسحة بشرتها بأفخم أنواع المساحيق تحدّق إلى تبدّل ملامح وجهها، ملامحها التي كانت توحي بالسلام، تبدلت فهي توحي بالانهيار النفسي يوماً بعد يوم.

لم يكن العجوز معنياً بما يحدث في روحها بل لم يخطر له هذا التساؤل أبداً! فهو يعتقد أنها مستقرة وسعيدة وما كادت تكمل عامها الثاني في قفص الزواج حتى بدأت تتساءل بنفاذ صبر عن مفهوم الفضيلة؟ ما معنى الإخلاص لرجل تجاوز عقده السابع معنيّ ومقرف؟ كم هي إنسانية الخيانة في حالتها، اقتنعت بأنّ من واجبها تجاه نفسها البحث عن عشيق مناسب قلبت احتمالات كثيرة ودرستها جيداً، على العشيق المُختار أن يلزم السرية وألا يطمع بمالها، لكنها ارتأت أن تعدد عشاقها ففي ذلك أمان أكبر من الفضيحة، اصطادت عشاقها بذكاء، من طالب جامعي إلى شاب في الجندية وأحياناً بعض المحامين المتدربين الذين يقصدون زوجها لاستشارته في قضايا قانونية معقدة، كان يكفي أن ترسل بعينيها شحنات من اللهفة والإثارة لصيدها حتى يتبلبل كيان الرجل وينقاد للغواية.

لم تكن متعتها مع عشاقها جنسية صافية إذ كانت تخجل من التعبير بعفوية عما يُمتعها بل كانت تجد متعة هائلة من مجرد ملامسة واحتضان جسد شاب فتي ذي رائحة، تنبهت أن العجوز لا رائحة له، وأنه حين يطلب إليها أن تغسل قمصانه تشمها فلا تجد أية رائحة خاصة به، جسد لا يفرز نسغ الحياة، رجل مُطفأ، تحس حياته أشبه بآخر شحطة من سيجارة ثم رماد كلي.

لكنها بعد كل خيانة كانت تشعر برقة صادقة نحو زوجها

العجوز، تنبهت لفظاظة عشاقها وأنانيتهم وقارنتها برقة العجوز وحنوه ولباقته، مكتشفة العلاقة العكسية بين الرأفة والحنان من جهة والقدرة الجنسية من جهة ثانية.

ربما يضطر الرجل الفاقد للقدرة الجنسية أن يصير أكثر حناناً مع المرأة كنوع من التعويض أو الاعتذار لها عن عجزه، لم تكن علاقتها العابرة تسعدها ولا تشعرها بالإشباع الجنسي المرتبط لديها بالإشباع العاطفي، كم كان قاسياً ومُهيناً أن تتعرى بين ذراعي شاب لا تعني له سوى وعاء لإفراغ شهوته ولا يعني لها سوى وسيلة هروب ولإبعاد شبح الموت عن تفكيرها، مشكلة العيش مع العجوز أنها صارت دائمة التفكير بالموت، إذ تحسه يتأبط ذراع الموت في كل حركة يقوم بها، فإذا تأخر قليلاً في الاستيقاظ تعتقد أنه مات. إنه رجل بلا مستقبل لأنه مجرد ماض، كم كانت تُدهش حين يحدثها عن مشاريع سيقوم بها بعد عامٍ مثلاً.. تطل من عينيها نظرة تعني: هل تضمن أنك ستعيش حتى السنة القادمة؟!.. تدهشها غريزة الحياة فالإنسان مهما تقدم به العمر لا يرى الحياة مؤقتة بل أبدية. قمة نشاط العجوز حين يطلب إليها أن يتمشيا قرب البحر يقبض على ساعدها بقوة خشية السقوط، في البداية اعتقدت أنه يمسكها بتلك الطريقة لأنه يحبها لكنه حدثها عن فزعه الكبير من كسور الشيخوخة. وأحياناً يتعكز على عصا فتشعر كم يضج كيانها بالرفض والألم، كانت تمشي بجواره تنصت لأحاديثهما الذابلة فخيالها لا يكف عن فرز صور تعذبها بأنها تتركه وحيداً مع عصا شيخوخته وتنطلق راكضة بقوة حتى خط المدى حيث يتعانق البحر مع السماء في تلك القبلة الخُلّبية

الساحرة. في لحظات كثيرة كانت تتفرج على صور شبابه وتحاول بطاقة خيالها معايشة تجاربه العاطفية الجنسية، آه كان جميلاً فيما مضى. . . . تحولت نقمتها الخاصة إلى نقمة عامة على المجتمع، كيف لا يستنكر الناس زواج الكهول؟! . . أي رضى نفسي وقبح وانتهاك لقدسية العلاقة بين المرأة والرجل حين تتزوج شابة بعجوز ؟! أين ضمير الناس؟ إن ذلك أشد قبحاً من الزنى! لكنه شرعي! عجباً كيف يكون شرعياً!!

لم تنتبه له واقفاً قبالتها بعباءته الشفافة التي تشف عن جسده الذي يثير غثيانها يطلب إليها أن ترافقه إلى غرفته وتتمدد بجانبه قليلاً حتى يغفو.

ردت على كلامه بابتسامة مسمومة وعدته أنها ستلحقه بعد لحظات، ابتلعت جرعات كبيرة من النبيذ مستمتعة بطعمه الحارق وهي تقول لنفسها بسخرية مريرة: خسرت نفسي بطمعي، الطمع دمرني تماماً.

مشت باتجاه غرفة العجوز وثمة يقين يهبط عليها ويحط على رأسها كخوذة من حديد، بأنها ستموت قبله.

٣

جميلة

سمّوها جميلة لأنها انتزعت شهقات الإعجاب حين ولادتها، فوزنها عند الولادة كان خمسة كيلوغرامات ووجهها مدور وردي، عيناها خضراوان واسعتان وزغب كستنائي ناعم يكسو رأسها، تحلّق أخوتها الخمسة الذكور حولها متأملين المولودة كدمية جميلة، ابتسمت الأم شاعرة بالانتصار كونها أنجبت طفلة بهذا الجمال قالت: فلنسمها جميلة.

حتى عامها الثالث ظلت جميلة الطفلة المدللة تتناقلها الأيدي وتتململ من القبلات والمداعبات، تضجر من الهدايا وترمي ربطات شعرها الملونة من النافذة بنزق، في منتصف عامها الثالث أصيبت جميلة بالتهاب سحايا هدّد حياتها، أُدخلت المستشفى ورغم العناية الطبية المكثفة لم يتمكن الأطباء من سحق الجرثومة الخطيرة التي خرّبت مناطق حساسة في دماغ الطفلة، خرجت من المستشفى بلهاء تماماً واستمرت

بالنمو وجعاً يؤلم أسرتها، كانت فتاة بكامل جمالها وأنوثتها لكنّها بلهاء.

دخلتْ جميلة خانة المعاقين ونسيت أسرتها أنها كانت ذات يوم طفلة متوقدة الذكاء، وحين قوي عودها أوكلت لها أعمال الخدمة المنزلية فكانت تقضي معظم وقتها في المطبخ تساعد أمها في الطبخ، تجلي وتمسح، تغسل ثياب أخوتها الذكور وتكويها، دون أن تسمع منهم كلمة شكر، فمن يشكر بلهاء؟!!.

وحين تزوج أخوتها كانت زوجاتهم يستعرن جميلة لتساعدهن في الأعمال المنزلية الشاقة، لم تكن تتململ أوتشعر بالظلم، فالبلاهة حمتها من الإحساس بالاضطهاد، كانت تعمل لساعات طويلة ويداها تتورمان وتتشققان والابتسامة التي لا معنى لها مرتسمة على وجهها الجميل. البلهاء الحلوة تعيش في عالمها الخاص، فكل يوم عصراً وما أن تنتهي من أعبائها المنزلية تخرج إلى الشرفة بمريلة المطبخ المبللة والمتسخة، تقف في الزاوية تنظر إلى البعيد وتخاطب أشباحها، تقاتلهم، تعتب عليهم، تذرف دموعاً سخية وهي تناجيهم، تلوح لهم بيديها تفرد ضفيرتها الطويلة وتسرّح شعرها ثم تعيد ضفرها، تعوّد الجيران على طقوس جميلة فما عادوا يولونها أي اهتمام.

في أوقات متباعدة كان أخوتها يقدمون لها هدايا مهترئة كأحاسيسهم، عبارة عن ثياب عتيقة لزوجاتهم، لم يخطر ببال أي من هؤلاء الأصحاء أن يشتري ثوباً جديداً لجميلة، لكن جميلة تشكرهم من قلبها الطافح بالحب للعالم كله على

هداياهم وحدها الأم أصرّت على أن تهدي جميلة اسواراً ذهبّياً كل عام، كنوع من الوقاية من غدر الأيام.

تُعامل جميلة كحيوان أليف، فتُعطى مكافآت بسيطة حين تجيد العمل المطلوب منها، حوّلتها الإعاقة بنظر أقرب الناس لها إلى لاشيء، وحين مرضت ذات شتاء بالتهاب في رئتها ولزمت الفراش شهراً، جن جنون أخوتها لأن آلة الخدمة تعطلّت، ولم تتحرك أحشاء أي منهم بالحب لأختهم التي يحتقرون إعاقتها، بل إن أحد أخوتها قال: لا ينقصنا إلا أن نخدم البلهاء، ووافقه الجميع على رأيه.

من حسن حظ جميلة أن بلاهتها تحميها من قسوة البشر، أكملت الصبية الخامسة والعشرين من عمرها وأيامها تتجرجر في الخدمة، لم تشكُ يوماً، وحين كانت تعاني آلاماً في ظهرها كانت تستلقي على الأريكة لساعات مستسلمة لأحلام يقظة غنية. كل عالمها لا يمت لعالم البشر بصلة فكل يوم تخاطب أشباحها، لم ينتبه أحد أن شاباً عابثاً كان قد استأجر غرفة مقابل بيت جميلة صار يترصدها، فأخذ ينتظرها كل يوم ويخاطبها بالإيماءات ذاتها ويرسل لها قبلات عبر الأثير، جمدت جميلة وهي ترى أحد أشباحها يتجسد أمامها رجلاً من لحم ودم تبلبل كيانها وعرفت الأرق لأول مرة في حياتها، لم تكن قادرة على التفكير فأفكارها مغشاة بالظلمات، لكن من قلب عالم البلاهة الهلامي فاضت روحها بشوق وحنين مختزنين في روحها، الحب أقوى من العقل وأكثر أصالة، الحب عفوي حتى في قلوب البلهاء.

لم يبال أحد ببلهاء الحارة المنسية، فالكل منشغل بنفسه، ولم يلحظ أي من أخوتها أن الشاب العابث أخذ يستدرج جميلة إلى غرفته ويعريها من حيائها وبلاهتها وأساورها الذهبية، قدّمت له جسدها مُطيعاً متوهجاً، معرّفاً إياها على ملذات لم تتوقعها أبداً ولم تعرف بوجودها من قبل، كان شعورها نحوه أقوى من الغريزة، إنها كالمخمورة تترنح وجداً، لم تجرّب من قبل أن يعني لها شخص كل حياتها، كيف صار زمنها ينساب بنعومة فائقة وهي معه.

صار بالإمكان ملاحظة شعاع الحب في عيني جميلة، تلقت بفرح سخرية أخوتها لأنها صارت تفرد ضفيرتها، اختفى الشاب بعد حصوله على أساور جميلة الذهبية، ولم يبال بانكشاف أمره، سينكر كل شئ صارخاً في وجوه أخوتها: من يصدق مجنونة، إنها تكذب...

لم تبال جميلة بالضرب الوحشي الذي تعرّضت له، كانت غائبة عن عذاب الجسد، تبحث هناك في تيه معتم بلا قرار عن حبيب حمل معه سعادة صاعقة ومباغتة عايشتها معه، إنها تنظر حائرة في آلام قلبها ولاتعرف كيف تداويها، تريد عوناً من هؤلاء الأصحاء العقلاء عساهم يرحمون قلب عاشقة..... تنظر إليهم بعينين محبتين دامعتين متسائلة بنظرة خرساء: لماذا تضربونني كحيوان؟!!..

عادت جميلة إلى عادتها في مخاطبة أشباحها كل عصر، قررت الأسرة ألا تلبس جميلة ذهباً أبداً، وأن تمنع من مغادرة البيت.... صار صوت جميلة مرتشحاً بالحزن مبللاً بالدموع

وهي ترنو إلى شرفة الحبيب الخالية وتناجيه .

قد يتمكن الزمن من بلسمة آلام جميلة العاطفية ، لكنها لن تدرك أبداً أنه ليس من عادة الشيطان أن يؤاسي ضحاياه .

٤

عذاب

حين قررَّ الطبيبان نقل أمينة من غرفة المخاض إلى غرفة العمليات، أحستْ أن الفزع يبتلعها تماماً. ليس لأنها سمعت حوار الطبيبين المقيمين المرتبكين بحالتها المعقّدة بل لأن إحساساً طاغياً أشبه باليقين هيمن على روحها، يؤكد لها أن كارثة ستصيبها ولا يمكنها ردها استعاد ذهنها المُنهك حوار الطبيبين المقيمين:

الأول: من الأفضل أن نستدعي الطبيب الاختصاصي.

الثاني: لا، لن نستدعيه، كيف سنتعلم إن لم نجرب بأنفسنا؟

الأول: لكن هناك علامات صريحة لتألم الجنين.

الثاني: هذه فرصتنا لنجرب كل الحالات الصعبة، ثم لا ننسى أن الأخصائي يغطينا قانونياً.

أصدر الطبيبان أوامرهما بنقل أمينة إلى غرفة العمليات، كان المخاض اللامجدي قد أنهكها، وتركها كخرقة مبللة

ملتصقة بسرير المخاض الضيق البارد، كانت تئن وقد جفَّ حلقها والتصق لسانها بسقف حلقها، ولاتنفك تردد بيأس: أرجوك، أرجوك، أرجوك.. في الواقع كانت ترجوالله أن يسهل ولادتها وينقذ وليدها، لكن الطبيب اعتقدَ أنها تعنيه بكلامها، فقال لها بنفاذ صبر: كفى يا أختي ثرثرة، تحملّي قليلاً، اصبري.

قالت وهي تستسلم للأيدي التي توسدها على النقالة المهترئة: ساعات وأنا أتحمل يا دكتور، أتوسل إليك استدعِ الأخصائي.

زجرها الطبيب قائلاً: اسكتي، والله عال، أتشيرين علي بما سأفعل؟.

عبرتْ الرواق البارد الطويل إلى غرفة العمليات، برفقتها شابة في السابعة عشرة لها وجه طفلة تمسك يدها بحنان، سألتها أمينة عن اسمها وهي تحس بتدفق الحنان في جسدها عبر راحة الصبية الحلوة، قالت بصوت يفيض عذوبة: اسمي عذاب. استغربت أمينة، بل استنكرت أن يكون لتلك البنية ذات الوجه الملائكي اسم عذاب. قالت لها: من سماك عذاب يا بنيتي؟!. رفعت عذاب عينين حزينتين إلى السقفَ كأنها تناجي روحاً تشتاقها ولا تعرفها وقالت: توفيت أمي وهي تلدني، فسماني والدي عذاب.

تعانق الحزن في عيني البنية وحزن المرأة التي هدّها المخاض، أطبق بينهما صمتٌ مشحون بالترقب، كانت عذاب تمسك يد أمينة حين صرخ بها الطبيب بجفاء: أنت، ما بك واقفة كالصنم، ألا تريدين أن تتعلمي؟في أية سَنة قبالةَ

حضرتك؟ ردت عذاب بصوت مرتجف: في السنة الأولى.
قال الطبيبَ بنزق: والله لا أعرف لماذا أنا منحوس هكذا؟كل مرة يرسلون لي تلميذات قبالة في السنة الأولى.

طلب موظف التخدير من أمينة أن تتنشق المخدر من كمّامة سوداء قرّبها من أنفها ودّت لوترفض فقلبها يحدثها أن شيئاً خطيراً سيحدث، إنها لا تخشى على نفسها بل على المسكين الذي يتألم في أحشائها، قلب الأم لا يخطئ أبداً، أحست أن قلب الأم موصول بقلب الكون، وتخيلّت أن للكون قلباً كبيراً نابضاً، أمكنها أن تتخيل حدوده كنقاط لمآعة تربط الأجرام السماوية بعضها ببعض، هذا ما كانت تفكر به حين أخذت تتثاءب بعمق وتدخل في الغيبوبة.

أفلتت عذاب يدها ووقفت إلى جانب الطبيبين المتوترين، أخذ الأول يشتم النساء وتعسرات ولادتهن، تمكنا أخيراً من استخراج الجنين، ووضعاه على طاولة جانبية، نظرت إليه عذاب بعينين تفيضان دهشة، لم يصدر عنه أي صوت، اقتربت منه وتأملته بحب كبير، حدثت نفسها: ما أجمله!.. كان ورديآ بأطراف صغيرة طرية، وبطن طري مكور يعلووينخفض ببطء مع تنفسه. اقترب منه موظف التخدير وهمّ بإنعاشه، أمسكه من قدميه وترك جسده الصغير يتدلى إلى أسفل، كانت عذاب تفكر في أن الصغير يشعر بالبرد بالتأكيد، فهي تلبس كنزة صوفية وتشعر بالبرد في تلك الغرفة الخالية من التدفئة، تساءلت: لماذا تظل التدفئة المركزية معطلّة؟ مسحت الغرفة بعينيها كانت حديثة العهد بالقبالة. تقصفت فرائصها رعباً وهي ترى مساعد المخدر يهوي بضربات قاسية على أسفل قدمي

الوليد، فيما جسده المتدلي يرتج من شدة الضربات كنّواس، انفلتت من فمها لا . . . جريحة ونازفة ومتوسلة في آن، لم ينتبه لها أحد! استمر مساعد المخدر يضرب قدمي الوليد بقسوة اقتربت من الوحشية، لم يبد الصغير أية استجابة، سوى أن جسده كان ينوس بفعل الضربات، وضعه المساعد على الطاولة، وأخذ يقرصه من أذنيه وثدييه بقوة، حتى انطبعت الأصابع على الجلد الطري للوليد، نظرت عذاب إلى أمينة الغارقة في الغيبوبة، وهي تحس بشلل، نقلوا الطفل خارج الغرفة ووضعوه على سرير بارد في الرواق المعتم.

حاول الطبيب مص المفرزات من جوف فمه بكرة مطاطية تنتهي بممص بلاستيكي، صمم الصغير ألا يفتح عينيه على قسوة الدنيا، لكن بطنه ظل يعلوويهبط بإيقاع ذابل. انقضّ صوت امرأة بدينة كهلة على عذاب وهي تسأل الطبيب: هل ألبسه ثيابه؟

كانت المرأة تفرد صرة أنيقة وتخرج منها ثياب الوليد الناصعة، وأقمطته البيضاء والتي طرزت أطرافها بخيط أزرق، قدرت عذاب أن أمينة قضت أياماً تحبك ثياب طفلها.

تآزر معاون طبيب التخدير وطبيبي التوليد على الوليد، يحاولون عنوة جعله يصرخ أو يبكي لكن الأخير ظل مستسلماً لخدر أحلامه المُبهمة، أمسكوا الصغير مجدداً من كاحليه، ضربوه بقسوة على أسفل قدميه، أخذ يرتّج بقوة وعذاب تصرخ: كفى، كفى، لماذا لا تطلبون طبيب أطفال؟؟ . .

لم يبال بصراخها أحد، الأغلب أنهم لم يسمعوها، وضعوا الصغير على سرير الفحص، قربوا منه وجوههم الحجرية،

ضغطوا صدره براحاتهم الفظة، تبادلوا النظرات التي لا يمكن لعذاب أن تفهمها لأنها لم تتورط بالعذاب الفعلي بعد، بل لا تزال أسيرة اسم، مجرد اسم.

انقض عليها صوت المرأة التي أحست عذاب أن عمرها مئة عام وقالت ببرود: لقد مات.. صرخت عذاب: مات، مات، يستحيل....

قالت المرأة: مسكين، حظه سيئ، وكأنها استدركت، بل إنه محظوظ، لقد ارتاح من عذاب الدنيا.

كانت عذاب تنتفض كأنها أسيرة حمى مفاجئة، استندت إلى السرير، وعيناها معلقتان بالصغير الذي أحست أنها تحبه كما لم تحب إنساناً في هذه الدنيا، كانت ابنة السبعة عشر عاماً تكتشف زخم الأمومة في روحها، راقبت المرأة كيف تكفن الصغير بالقماش النظيف المعطر والمكوي الذي حضرته أمينة بفرح للذي يسكن روحها وأحشاءها. غاص قلبها وهي تتخيل أمينة تصحو من التخدير وتسأل عن وليدها.

سالت دموع عذاب سخية على خديها، لمحتها المرأة الآلية عَرَضاً، ضحكت كاشفة عن لثة تكاد تخلو من الأسنان وهي تقول: لا تزالين طفلة، بعد تسعة أشهر ستنجب أمه غيره، النساء في بلادنا كالقطط.

قالت عذاب بصوت مخنوق: لكن، لكن... اختنق صوتها، وبصعوبة أكملت: كيف مات؟

هزت المرأة كتفيها بلا مبالاة وقالت: لا حظ له، هذا قدره.

- لكن، أما كان يمكن أن يعيش؟ لماذا لم يدفئوه، لماذا لم

يستدعوا طبيب أطفال؟؟ . . لماذا؟؟؟ . . . . قاطعتها المرأة ضاحكة : سوف تتعذبين بحساسيتك هذه .

سألت عذاب باستنكار : حساسية ! . . . بدت هذه الكلمة غريبة بالنسبة لعذاب ، وغير مفهومة ، هل تقصد تلك المرأة أن تأثرها بوفاة الصغير يعتبر حساسية زائدة؟ ! ! . . .

همت بأن تسألها : ألا تشعرين بشيء؟ كل ما مرَّ أمامك ، ألم يحرك فيك أي شعور؟؟ ! ما معنى إنسان إذاً؟؟ . . .

لكنها لم تستطع أن تشكل كلمة واحدة ، بل ظلت تراقب بعيون خرساء المرأة التي كفنت الصغير وحولته إلى ما يشبه الوسادة البيضاء الصغيرة ، وحين همّت بتغطية وجهه ، صرخت عذاب مختنقة : مهلاً . انحنت فوق الصغير ، رفعت ملاءة الشاش عن وجهه ، لامست وجنته الطرية الوردية بيد مرتعشة ، تدفقت دموعها كطوفان وهي تهمس : آه . . ! ما أطرى وجنتيه ! ! مسحت مرات عديدة خديه ، ثم انحنت وأخذت تقبله بكيانها كله من جبينه وعينيه ووجنتيه ، كانت مستعدة لأن تقسم برحمة أمها أنه استجاب لقبلاتها . تركتها المرأة المنخورة من الداخل والخارج تفعل ، قالت لها : كفى يا صغيرتي ، لن تعيده قبلاتك إلى الحياة .

في نبرة صوتها سخرية لم تخفَ على عذاب ، التي كانت تبكي بعيون أمينة أيضاً .

قالت لها وهي تلحم صوتها المتشقق : أعرف ، لكن ، على الأقل ليقبله أحد بحنان قبل أن يغادر الدنيا . ألا يجب أن يعرف القبلة على الأقل ! . .

كانت عذاب تفكر وهي تبتعد في الرواق المعتم البارد بأمينة

التي لم تصحُ بعد على فجيعتها، وبالوليد الذي لم يرَ نور الحياة، ورغم اصطخاب مشاعرها الذي يهدّ جسدها الضئيل، فإنها أحست بشيء من الرضى كونه عرف قبلة حنان على الأقل، قبل أن تؤثر روحه العودة من حيث أتت.

٥

السيدة أجحش من لك

في كل مرّة أجلس للكتابة عنها أحس بإعاقة وأفشل في كتابة كلمة واحدة، عرفتُ السبب أخيراً إذ أن رغبتي العارمة في الكتابة عنها تربكني وتجعل الأفكار تتزاحم بفوضى في ذهني. أن أكتب عنها يعني أن أكتب عن امرأة كل شئ فيها مزيّف، كأن علي أن أسقط عنها أقنعتها الكثيرة. اعترف بسذاجتي لأني أُدهش كيف يمكن أن تكون الأم سافلة! لأني أؤمن بأنّ الأمومة دواءٌ سحريّ يطهّر النفس ويرقّيها، لكن تلك الأفعى - كما أسميها - أم لطفلتين وكل كيانها ينضح بالشر والحقد!.

كان يحلولي أن أراقبها من زاوية خفية، أتفرج عليها كيف تمشي بتحد متعمدة أن يُصدر حذاؤها طقطقة عالية رافعةً رأسها للأعلى في تحد ومبتسمة نصف ابتسامة أشبه بتكشيرة الذئب. تحيي الموظفيّن بصوت عال ومبالغ في حدته تحية أشبه بالصفعة لدرجة يضطر كلٌ من حولها للالتفات إلى تلك المرأة التي يثقب صوتها الآذان! . . تسأل بطريقة تمثيلية منافقة كل

من تتبادل معه التحية، كيف الحال؟ وكيف الأولاد؟ . . . . وتختم كلامها - بصوتها الجهوري دوماً - الحمد لله رب العالمين، كنتُ أتساءل بفضول كبير كيف تفهم تلك الإنسانة المتعكرة بالحقد رب العالمين! . . .

كنتُ ألتقيها كل يوم بحكم عملي فأحس أن من واجبي كشف معدنها كما لو أني أقلبها على قفاها، كانت تحتقر الناس البسطاء والموظفين الذين هم أقل مرتبة منها، تُظهر لهم اهتماماً زائفاً بينما في أعماقها تسخر منهم، من لباسهم البسيط ولهجتهم الريفية، يحلولها أن تقلد لهجتهم أمام ابنتيها، ذات يوم سألتها ابنتها باستغراب:

- ماما أنت تسخرين من فلانة وتقلدين لهجتها، لكنك حين تلتقينها في الطريق ترحبين بها بحفاوة كما لو أنك تحبينها كثيراً.

سخرت منها وأجابتها: يا غبية، أنا أسخّرها لخدمتي.

رغم توددها لهؤلاء الموظفين البسطاء وسؤالها عن أولادهم بطريقة مسرحية، فإنها تعتبرهم دُون، وتحتقرهم حتى القرف وتتمنى لو تعاملهم كعبيد. مثلها الأعلى في الحياة: السلطة بكل مظاهرها المستبدة واللا إنسانية فهي لا تستطيع فهم سلطة عادلة، سلطة إنسانية، بل سلطة استبدادية تبطش وتظلم وتستبد. ذات يوم راقبتها كيف يتلّون وجهها بنشوة هائلة وهي تتفرج على ابن مسؤول ينزل من سيارته «الشبح» ويشبع رجلاً كهلاً ضرباً في الشارع أمام الملأ لأنه تجرأ وخدش سيارته بالعربة الخشبية التي يجرها حاملة تلة من البرتقال.

انتشتْ وهي تتفرج على الاعتداء الوحشي الذي أشبع ساديتها وتمنّت لو توفق بزوجٍ متنفذ لابنتها التي تطرحها بقوة وإلحاح في سوق الزواج.

الناس البسطاء حولها يحسّون بفطرتهم كم هي مزيفة ومنافقة وتصلهم مشاعرها كم تكرههم وتحتقرهم، لكنهم يجاملونها لأنها ذات منصب قادرة أن تؤذيهم.

يجب أن أشكرها إذ علمتني كيف أصنّف لمعان العيون، في عينيها لمعان الشر المختلف تماماً عن لمعان الذكاء ولمعان التوهج الروحي.

تعتقد أنه يكفي أن تدلع الموظفات كي يحببنها، فتسمي ندى ندوشة، ولمى لموشة، وسمر سمورة. لم يخطر لها يوماً أن تجلب معها إلى الوظيفة قليلاً من القهوة، هي التي تشرب كل يوم قهوة على حساب الآخرين، لم يخطر لها يوماً أن تقدم هدية لموظفة تخدمها منذ سنوات لأنها خُطبت أو تزوجت أو رزقت بطفل. لديها بخل مرّوع أشبه بنسيج كتيم تماماً، إنها لا تحبّ إلا الأقوى منها، القادر على أن يذلّها، وكرمها زائف فهي من وقت لآخر تدعو الكبار المتنفذين إلى بيتها، تسخو على الطعام والشراب وتمطر ضيوفها بالمجاملات والعواطف، تتمنى لو تفلح تلك الدعوات في إيصالها وإيصال زوجها إلى منصب مهم، زوجها الذي تريده أن يصير أي شئ ما عدا نفسه، يتغامز عليه الجميع في العمل ويسمّونه المركوب، المسكين خاضع لجبروتها ومضطر بسبب انسحاقه إلى أن يقبل الحياة كما تصورها له. ما عاد يتذكر كيف كان قبل زواجه منها لكن من يعرفه يؤكد أنه كان طيباً ورقيقاً ويتحلى

بخفة الروح، لم يبقَ له من ماضيه قبل الزواج سوى صور باهتة معلقة على حافة ذاكرته، إنه يخافها ويكرهها ولا يستطيع التحرر منها فهي تطبق عليه كالقدر وقد باع نفسه ورضي بالصفقة، قدّمت له المال مقابل زواجه بها عسى هذا الزواج يُنسي الناس تاريخها العهري حيث قضت سنوات في موسكو تمارس الدعارة الراقية مستغلة جسدها الشهواني في مد جسور مع رجال متنفذين استفادت منهم وجمعت ثروة.

أُصيب زوجها لفترة طويلة بضعف جنسي شديد بسبب الضغط العصبي الذي يحسه معها ولاحتقاره نفسه كيف باع روحه لقحبة. صبرتْ طويلاً حتى تجاوز المسكين الأزمة وتمكنت بعنادها من تطويعه وإقناعه بأنّها الصح وأن هذه الدنيا يجب أن تُغتصب وأن الاحترام الحقيقي يكون للأقوياء فقط.

كان يجرؤ على معارضتها بصوت واهن: لكنك لا تحبين الأقوياء بل المستبدين؟....

فتضحك ضحكة الذئب مكشّرة عن أسنانها الكبيرة التي تعطي انطباعاً أنها جاهزة للافتراس وتقول: لا فرق.

لم يخطر لها يوماً أن تعطي متسولاً بضعة قروش، لا يمكنها أن تعطي فالعطاء مفهوم غير موجود بالنسبة لها. ذات يوم شتائي عاصف كانت تركض مع ابنتها باتجاه السيارة هرباً من مطر غزير، تقدمت منها طفلة حافية ترجوها صدقة تلبس أسمالاً بالية وأسنانها تقرقع من البرد، رجتها أن تعطيها ثمن سندويشة، زجرتها بقسوة ورفعت كفها كما لوكانت راغبة في صفعها، لكن المتسولة توجهت لابنتها ترجوها أن تعطيها قطعة من لوح الشوكولا الذي تقضمه، همّت ابنتها بأن تقدم

الشوكولا للفقيرة لكن قبضة أمّها الحديّدية هرست يدها وخطفت الشوكولا مهددةً ابنتها بعقوبة وهي تصرخ: لا تعامل لنا مع هذه الحشرة.

قصتها مع المستخدمة كفاح ظلّت حديث المدينة لأشهر طويلة. فتلك المرأة التي تعمل خادمة في البيوت وهي تقترب من عقدها الخامس متحملة آلام ظهرها وأوجاع خاصرتها هي التي تعيش بكلية واحدة، تفني نفسها في الخدمة كي تؤمن الدواء لابنها المصاب بالسكري، لم تؤاسها بكلمة واحدة ولم تسألها يوماً عن ابنها الذي أفقده السكري بصره والذي لم يستطع الأطباء إنقاذ قدمه من التموت فاضطروا لبترها.

وحين تتأخر عن موعدها لخدمتها تقابلها بالصراخ والتهديد وتحسم مبلغاً من أجرتها متناسباً مع تأخيرها!...

فقدت كفاح صوابها ذات يوم وقالت لها: والله أنت امرأة بلا قلب، هل أنت أم كيف لا يرق قلبك لحال ابني.

قاطعتها وهي تَعوي: ماذا تقصدين أيتها الحقيرة؟...

- أتقابلينني بالصراخ والتهديد بطردي لأني تأخرت، ألا تعرفين أني قادمة لتوي من المشفى حيث بتروا قدم ابني.

- لا تعنينني أمورك الخاصة، أنتِ خادمة عندي وتأخذين أجرك.

ولولت كفاح وهي تشد شعرها وتلطم صدرها فاقدة قدرتها على الصبر وقالت:

- لم أر في حياتي أحقر منك.

التمعت عينا المرأة ببريق الشر المُبهر، لم تقل شيئاً بل اتصلت بالشرطة ولفقّت تهمة السرقة للمرأة المسكينة،

جُرجرت كفاح إلى قسم الشرطة، عُوملت بخشونة واحتقار لكن منظرها المهزوم والحزن الطافح من عينيها ورائحة الصدق التي تنشرها في الجو حولها حرّك العطف والتفهم لدى المحقق فاعتذر لها.

لم تكن تعطي ثياب ابنتيها العتيقة أوالتي لم تعد على مقاسهما للفقراء بل تجمعها في رزمة وتبيعها لتاجر ألبسة مستعملة، أناقتها مزيفة فهي تمرض إذا رمت فستاناً تحاول أن تبدل في خطوطه كي يتماشى مع الموضة، تبدومضحكة أحياناً وهي تعتقد أنها قادرة على خداع الناس بأناقة تعود لسنوات ماضية.

أبرز هواياتها تقويض الصداقات حولها، أكثر ما يغيظها صداقة ناجحة، تظل تنخر في العمق وتثرثر حتى تنشرخ الصداقة. امرأة متكدرة بالسموم، الحقد بالنسبة لها كائن حي صديقها الوحيد الذي تسامره كل وقت وبعد تملّق طويل لرؤسائها تمكنت من الوصول إلى منصب يجعلها تتحكم بعمل عشرات الموظفين ومن اليوم الأول لاستلامها منصبها أصدرت عشرين عقوبة حسم بالراتب ونقلت عشرة موظفين من مكان عملهم إلى مكان آخر عقوبة لهم.

متعتها أن يخافها الناس ويرهبونها ويضطرون لتملقها فحين يمر يوم ولا تتمكن من الأذى تشعر بأنّ الحياة غير معقولة، كل أحلام يقظتها تدور حول موضوع واحد أن تجلس على قمة هرم والناس عبيد عند قدميها ينظرون إليها بخوف وضراعة وهي تأمر وتنهي وتتحكم بمصائرهم. يا لمتعة هذا الحلم المتجددة أبداً، يا للدغدغة اللذيذة التي تثيرها تلك الخيالات،

كم كانت تتخّيل أنها تضاجع رجالاً مستبدين يبطشون ويدمرون أشخاصاً وأُسراً، من سوء حظها أن زوجها مسالم، كم تلعن الزمن الذي اضطرها للزواج منه.

أما كرهها الأعظم فللمتفوقين علمياً لأنهم مرآة حقيقتها فقد حصلت على شهادتها العلمية من موسكو بالرشاوى، في طفولتها ذاع صيتها في المدرسة بأنها الطالبة الأكثر غباءً لدرجة ابتكرت صديقاتها تعبيراً صار أبدياً ومتداولاً من جيل إلى جيل: (أجحش من ك) فإذا اختلفت صديقاتها حول غباء إحدى الطالبات يسألن: أهي أجحش من ك؟!..

خبرتها الوحيدة في الحياة التدريب على الشر، صارت بارعة في قلقلة الوسط حولها فأينما تكون يحّل خراب ما ودوماً هناك نزاعات وأحقاد وفتن تثيرها امرأة تنشر حولها غباراً مسموماً، إنها تريد أن تدمر كل ما لا تملكه النجاح، الأخلاق، العلم، الطيبة، الرقة، الإنسانية، لتحل روحها المسمومة في كل شئ.

تدفع ابنتها المراهقة لمعاشرة أولاد الناس الذين فوق، فوق، ترفع يديها إلى أعلى حتى تكاد تلمس الثريا من الكريستال: يجب أن تطمحي إلى الأعلى دوماً.

كانت تنتقي لها صديقاتها إذ محرّم عليها معاشرة فتيات من أسر متوسطة، دفعتها لصداقة فتاة عابثة جمع والدها ثروة هائلة من تجارة الممنوعات وبسبب قوة ماله وصل إلى منصب رفيع وصار لقبه خاتم سليمان، إذ لا تستعصي قضية في يده كل شئ له حل وله ثمن. هذا شعاره في الحياة، لديه شبكة علاقات واسعة خارج بلده ويقال أنه عضو بارز في المافيا العالمية.

تحلّب ريق المرأة - أجحش من ك - ليتزوج ابنه ابنتها، الشاب مستهتر يقضي وقته في كازينوهات لعب القمار، لم يجد مانعاً في تذوق تلك المراهقة التي يجدها في طريقه كيفما تحرك، فض عذريتها ورماها كنواة ثمرة، استمتع بمضغها للحظات وحين حاولت (أجحش من ك) إجباره على الزواج بها لأنها قاصر أرسل لها مجموعة صور لابنتها عارية في أحضان رجال عراة...

جن جنونها، كيف حدث هذا؟.. هل هذه الصور حقيقية! لم تهتم. أن المراهقة منهارة أشبه بصنم يذرف دموعاً ساخنة باستمرار، الأم...!! تزأر كيف ضحك عليك يا حمارة، يا غبية، هل سقاك مخدراً وصورك؟!.... قولي أي شيء تكلمي، ما بك هكذا كالحجر ألا تعرفين مصلحتك يا مجنونة، كان بإمكانك أن تتربعي ملكة على تلك الإمبراطورية المالية... آخ، ماذا أقول؟ ما بكِ هكذا لا يؤثر بك كلام؟...

ظلت الصبية التمثال متخشبة لأيام رغم صراخ أمها ورغم حديث الترغيب والترهيب الذي تُسمعها إياه... لكن التمثال انتفض فجأة وبأقل من خطوات قليلة كان يقفز من شرفة الطبقة الثالثة للفيلا الفخمة.

٦

العقاب

لم يشجعه على المضي في قراره سوى عنف يأسه، جمع بعض أغراضه كيفما اتفق دسّها على عجل في حقيبته، شعر بأنّ هذه اللقطة غير غريبة عنه فهي تمثل حلمه الوحيد على مدى عشرين عاماً من الجحيم الزوجي، تردد هل يكتب لها ورقة أم يغادر دون أن يُعلمها، لم يكن بحالة تسمح بالتفكير فهو مختنق بانفعالاته المكبوتة في صدره، كان يكّز على أسنانه وهو يقول: لن أعود أبداً. ورغم أن خوفاً أصم كان يكمشه في كتفيه ويخنقه قلقاً على أولاده، إلا أنه مضى في قراره الذي لن يتراجع عنه ولوقامت الدنيا.

ابتلع حبتين مهدئتين وهويستحضر صورة الطبيب الواثق بنفسه يحذره: عليك أن تنتبه جيداً لصحتك، رجل مثلك على أعتاب الخمسين عمله مرهق وطويل يجب أن يحذر الانفعالات القوية، وليس ضغطك المرتفع إلا بسبب الانفعال.

انطلق بسيارته غير عارف وجهة محددة، باغتته دموعه كان بكاؤه مؤلماً، بكاء رجل لم يعتد ذرف الدموع، حاول أن يهدئ نفسه وأن يحثّ ذاكرته لاستعادة صور سعيدة قبل زواجه، إلا أنه لا يعرف من أيام عزوبيته سوى صور ضبابية وطعم عذب تتركه الحرية في حلقه، المدينة متلألئة بأنوارها رغم الظلام، أين عساه يذهب؟ هل يقصد الفندق الذي اعتاد أن يلتقي فيه بعض عشيقاته اللاتي يلجأ إليهن هروباً من جحيم زوجته عساه يجد لديهن العون في شفائه من إحساسه المستمر بوطأتها.

لا يتمنى سوى أن يتوصل لشعوره بالفراغ منها، فهي تحتل حواسه وتسممها، يشعر دوماً بأنّها تملؤه بالفوضى والتوتر وتشتت ذهنه جاعلة إياه في حالة لهاث من التوتر الغامض...

قرر الذهاب إلى فندق لم يقصده من قبل، يريد أن يضيع بين غرباء، أن ينسى نفسه، يتمنى أن يسترخي ويلملم بقايا روحه الممزقة، أعطاه عامل الاستقبال مفتاح غرفته وهويتمنى له ليلة سعيدة، تمدد على السرير وهويشعر بأنّ جسده كوتر مشدود، فتح النوافذ ليستقبل هواء الليل الرطب، خبط على صدره مغتاظاً لأنه شعر بأنّ الهواء عابق بأنفاس زوجته، بل أحس أنه لوذهب إلى آخر الدنيا فستظل تسكنه كجلده، كيف ربط حياته بتلك المرأة الهستيرية، التي يحسها كعقاب على ذنوب لم يرتكبها.

وتحت ستار حبها العنيف له، كانت تمتص حياته وحيويته وشخصيته وتحيله لهيكل رجل فارغ إلا من اليأس والألم، منذ الأيام الأولى لزواجهما أرادته أن يبجّل عذريتها وأن يكون ممتناً لها كونها حافظت على شرفها في زمن صار كل شيء مغشوشاً

وخصوصاً العذرية. ادعت أنها عانت آلاماً رهيبة ونزفت نصف دمها وهي تقدم له عذريتها كهدية لا تقدر بثمن! لدرجة تمنى في سره لولم تكن عذراء، واستمرت آلامها بعد كل وصال لمدة شهرين، حتى أنه اتخذ قراراً ألا يقربها لأسابيع، حاول أن يعتبر تصرفاتها الغريبة ضمن الطبيعي، لكن ردود فعلها تجاه ابتعاده عنها كانت كارثية، فذات يوم عاد من عمله مرهقاً ليجدها في حالة هستيرية تضرب وجهها بقسوة وتمزق صور زفافهما وترمي الوسائد أرضاً وهي تعوي من الانفعال: أنتَ لا تحبني. جمدته المفاجأة ولم تكن لديه أية خبرة عملية أو حتى نظرية في التعامل مع هذه الانفعالات المجنونة، أول شيء قام به إغلاق النوافذ ثم اقترب منها بحذر كما لوأنه يقترب من أفعى يخشى أن تباغته وتلدغه محاولاً فهم سبب جنونها، صرخت، أنت لا تحبني وإلا كيف تتحاشاني لأيام ونحن لا نزال عروسين.

لم تترك له المجال ليفهمها أنه يفعل ذلك لأجلها لأن آلام الجماع التي تحس بها تجعله وحشاً في نظر نفسه إن لم يعطها فرصة للراحة، زاد كلامه من هياجها واتهمته بالكذب والنفاق ثم عممت كلامها على الرجال كافة.

لم يكن يعرف كيف تنتهي نوب انفعالاتها، لكنها تهدأ هدوء عاصفة تعبت من زخمها، تنطفئ حين لا يعود بمقدورها الصراخ والضرب والبكاء، تحوّلت حياتها معه لرعب وترقب وفي نهاية كل نوبة هستيرية كان يتوجب عليه التمثيل أنه اقتنع بحججها وأنها خرجت من الشجار منتصرة، وأخيراً عليه أن يضاجعها كتتويج لعذابه وتمزقات روحه، يقترب من جسدها

العقوبة – كما يسميه – ولم يكن قادراً على القيام بذلك الفعل الفظيع إلا بدعم قوي من خياله يصوره مع نساء فاتنات وهادئات وبمساعدة عدة كؤوس من الكحول.

في حملها الأول زجته رغماً عنه في آلام وحامها، فكانت توقظه من نومه ليشهد اقياءاتها الصباحية الصفراء والتي تفوح منها رائحة كريهة.

وحين كان ينفجر غضباً صارخاً بها: لماذا توقظينني، هل لأتفرج عليك كيف تتقيئين؟! فتصرخ بجنون أنت لا تحبني ولا تحس بأية عاطفة وتعاطف معي، لا تريد من جسدي سوى اللذة، أما آلامي وأوجاعي فلا تشاركني فيها.

صار يشعر برعب يتكمش في داخله مذعور دوماً مما يمكن أن تقوم به، يشعر بأنّ من واجبه حمايتها من جنونها كي يحمي نفسه وأولاده، كانت تشعر بأنّها عظيمة لأنها أنجبت له ثلاثة صبيان، ولم تكن تجيد العناية بهم فألقت عبء تربيتهم على الخادمة السيرلنكية، كم تأمّل أن تغيرها الأمومة لكنها استغلت أولادها لتضيق الخناق عليه أكثر فأكثر، حتى استحالت الحياة بنظره إلى مشقة وألم، لم يعد يعرف الابتسام وحين تضطره الظروف للابتسام يشعر بأنّه كل مرة يرسم ابتسامة مزيفة على وجهه يعرف تماماً أنها لا تحبه بل تريد سحقه، ثم بدأت غيرتها المجنونة كلما امتدح امرأة أوتحدث إلى سيدة برقة، تبدأ شكوكها التي تتحول بقوة خيالها إلى يقين بأنه يخونها، وأكبر دليل أنها تتصل به مراراً في مكان عمله ولا تجده في أحيان كثيرة كان يفقد قدرته على الاحتمال فينفجر بغضب رهيب ويصفها بأبشع الصفات ويُعلمها كم يكرهها وكم أنها جحيمه

ويتمنى موتها، كان يتفرج عليها متلذذاً كيف تصغي إليه مصعوقة مبهورة الأنفاس، ثم تبدأ نوب جنونها التي تمثلها بإتقان فتتظاهر بضيق التنفس وتقوم من مكانها مترنحة ثم تسقط أرضاً مغشياً عليها، في بدء تلك النوب يكاد يصدق أنها تفقد الوعي حقيقة، لكنه مع تكرار تلك النوب لاحظ أنها تختار المكان الذي ستقع فيه كي لا تصاب بأذى، لكن مهما كانت الأسباب فهو مضطر للخضوع لمشيئة امرأة هستيرية خصوصاً حين يلمح الدموع والفزع في عيون أولاده وحين تبدأ بمناجاتهم بصوت كالأنين والدموع تنسكب من عينيها: آه يا أحبائي، أترون وألدكم يريد موتي لتصيروا يتامى، اليتيم يا أحبائي هويتيم الأم.

يبكي الأطفال بالتأثر والعدوى من أم لا تعرف سوى تسميم حياتهم، فيضطر الأب إلى لملمة الموضوع شفقة على أولاده غير الواعين أن الماما ممثلة وضحية مرض نفسي لا يعرفونه، لكنهم يعايشون آثاره.

كم من المرات وضع رأسه تحت الماء البارد كأنه يتمنى إطفاء لهيب عواطفه، كم من المرات هجّ من المنزل بعد منتصف الليل ليتيه في شوارع معتمة صارخاً بكل طاقته على الصراخ حتى يبح صوته، ويعود منكسراً إلى البيت ليربت على كتف زوجته معتذراً لها وواعداً إياها بأن يتعلم كيف يحبها.

صار يشعر كل صباح بأنّه معّرض لكل الاحتمالات، كل صباح يسائل نفسه: هل سيمر هذا اليوم بسلام؟ إنه لا يريد سوى العيش بسلام، وكي لا يختنق صار يلجأ بين وقت وآخر للعلاقات العابرة... لكنه كفّ عن هذا الهروب لأنه لم يجد

ما تتوق إليه روحه: الدفء.

بدأ يفاجئ نفسه بنوب ضحك هستيرية تنتابه من دون سبب، أو لأتفه سبب، ينفجر ضاحكاً حتى ينطوي على نفسه وتسيل دموعه، لم يكن ضحكه سوى تعبير عن عمق يأسه.

انتفض من السرير مكتشفاً حقيقة غابت عن ذهنه سنوات، الجريمة الحقيقية هي عدم عيش الحياة بكرامتنا وكما نريد، أجل لقد ارتكب جريمة بحق نفسه بإذعانه لامرأة تسعى لتدميره عشرين عاماً سممت حياته، دمرته معنوياً ونفسياً وأحالته إلى رجل مبلبل الحواس يعيش في حالة فزع وترقب مستمرة، يخاف من أية لحظة أن تنفجر نوب عصبيتها المجنونة.

فتح البراد تناول زجاجة بيرة مثلجة، شربها، شاعراً بأنّ البرودة تطفئ نار أحشائه، آه ما ألذ خدر الكحول، شرب زجاجة ثانية، شاعراً باسترخاء ونعاس، غفا شاعراً لأول مرة بأنّه يحتضن نفسه، آه كم اشتاق أن يعانق روحه، أحس أنه منذ زمن بعيد لم يختلِ بنفسه دون خوف، فزوجته تدس نفسها بينه وبين روحه.

هل أغفى حقاً وبدأت أحلامه تنساب بسلاسة، أم أن ما يراه أحلام يقظة؟! حاصرته الصور التي أراد الهروب منها، وكلما ألحّ في طردها تكثفت أكثر، تذكر يوم أراد السفر لزيارة صديق له في اليونان، كيف جن جنونها واتهمته بأنّه لا يحبها وإلا لفكر باصطحابها معه، بل اتهمته بأنّه مسافر ليخونها. . . . النتيجة كانت أن اعتذر لصديقه عن زيارته في اليونان.

أفاق على شعور ملح بالرغبة بالتبول، للوهلة الأولى لم يعرف أين هو؟ كمن أصابه فقدان ذاكرة، ثم تذكر لِمَ هو في

الفندق، هل حقاً قرر هجر المنزل؟!

أحس بطعنة ألم في قلبه وهويتذكر أن ابنه الأصغر لديه امتحان الشهادة الإعدادية بعد أيام، وضع رأسه تحت الماء البارد شاعراً بطعم دموعه الساخنة المالحة في فمه، مميزاً إياها عن الماء شديد البرودة ودون أن يجفف وجهه ورأسه خرج من الفندق، قاد سيارته بيدين مرتعشتين كقلبه، وحين دخل سجنه الأنيق رآها جالسة في الصالون محتقنة الوجه متورمة العينين وفي حضنها علبة مناديل ورقية مستعدة لتلقف دموعها ولعابها. . . أخذ نفساً عميقاً استعداداً لمسرحية الجنون.

٧

حب في زمن العولمة

كانت تنتظره بكامل أبهتها الروحية والجسدية، وقد أجّلت وضع القناع المغذي للبشرة حتى موعد حضوره، لتكون أكثر ما يمكن طازجة وجديدة حين تلقاه، لم تكن تعرفه إلا منذ زمن قصير معرفة سطحية لا أكثر، كانا مثقلين بخيبات التجارب الحياتية - العاطفية خاصة - تلك الخبرات التي تعطي الإنسان موهبة فهم أعماق الآخر من مجرد النظر في عينيه. كانت تشعر بأنّه مضى دهر لم تحب رجلاً، ولم يلمسها أحد، تلمس جلدها فتحسه جافاً كالقش، لم تعد تطيق أن يظل الرجل مجرد حلم، إنها تريده واقعاً. صار شغفها بالرجل واعياً ومتعمداً، وأخذت تبحث بإلحاح وإصرار عن تجربة من أجل إعطاء بهجة لحياتها، الحرمان الطويل أشعرها بأنّها تتحول لمراهقة، فهي تستثار وترتعش حين تتأمل المشاهد العاطفية على شاشة التلفاز، الحرمان صعب، هذا ما تؤكده لنفسها كل يوم مكتشفة المظاهر اللا إنسانية والقاسية للحرمان. لم تكن تجد الهمة ولا

الرغبة لتعتني بأظافر يديها وقدميها والاهتمام بنظافة جسدها من الأشعار. لسان حالها يقول: لماذا علي العناية بتفاصيل جسدي في غياب الرجل؟! لكن لأجله، لأجل شهيتها المتفتحة للحب بسببه أخضعت جسدها لعناية قاسية كما لو أنها تستعد لحفلة عرسها.

أقرّت بينها وبين نفسها أن وجود الرجل يعطيها موجات من المشاعر الدافئة التي لا تنضب، لكنها تجرأت واعترفت لنفسها أيضاً بأنّ غايتها اللذة ففي غياب الحب يستسلم الإنسان للملذات مضطراً، لم تخجل من تلك الحقيقة فقد فُطرت على ازدراء أي خداع لنفسها، كانت تحس بقوتها الذاتية وتنتشي باستقلاليتها، لم تعد ضحية الرغبات الذكورية، لم تعد صيداً، بل صارت صانعة مغامراتها.

كانا يعرفان - كل على حدة - أن ما يجمعهما هو هوى التجربة وليس الحب. الحب صعب في عمر النضج والخيبات، لكنه يظل مثيراً ومغرياً، استعدت لاستقباله، قدمت إجازة من عملها، اشترت سمكاً فاخراً كي يأكلاه مشوياً في مطعم على البحر، لبست الثياب التي تعتقد أنها تبدو فيها أكثر إثارة وأصغر سناً، وجلست مضمخة بالعطر والترقب ترشف قهوة انتظارها الفاترة.

فكرت بقلق حقيقي ماذا ستفعل برفقته ليومين ؟! شعرت أنها في محنة حقيقية، فهذا الغريب لا يجمعها به سوى جوع الحرمان. حاولت تخفيف توترها باللجوء للسخرية كعادتها، أطلقت على مغامرتها الجديدة: الحب في زمن العولمة. وكي تخفف موجات الاكتئاب التي بدأت تغزوها، حاولت أن تضع

نفسها مكانه، سيقود سيارته أربع ساعات في حر تموز ليلقاها، بدت لها تلك الحقيقة مرعبة ومدهشة في آن؟! أي جنون يجرفان نفسيهما إليه؟! ما الذي يربطهما ببعضهما كي يتحمل مشقة هذا السفر! لم يتأخر عن الموعد المتوقع لوصوله، استقبلته بحفاوة اجتهدت أن تبدو طبيعية دافئة خجلاً عميقاً كاد ينفلت من عينيها ويفضحها. تبادلا قبلات على الوجنتين، حاولت تجاهل رائحة عرقه، عذرته فقد قاد سيارته أربع ساعات في الشمس، شربا القهوة وتبادلا أحاديث عامة، اكتشفت عدم وجود أي موضوع حقيقي يتحدّثان به، كان عليهما خلق مواضيع الحوار، دخن سيجارتين مع فنجان القهوة وأخبرها بأنّه لم ينم جيداً الليلة الماضية. استأنفا رحلة الاكتشاف بالبحث عن محطة للوقود، كان قلقاً فعليه ملأ خزان سيارته بالبنزين، لم تكن تقود سيارة، فتاها في شوارع محفورة من أجل مد خطوط للهاتف. . . . من سوء الحظ أن المكيف في سيارته معطّل، كان عليهما فتح النوافذ وتلقي هواء مشبع بالرطوبة والغبار. أكثر ما تكرهه الرطوبة، تجعلها عصبيةً رغماً عنها، لكنها ألزمت نفسها بالضغط على أعصابها والتظاهر ببهجة زائدة. . . كانت تتفرج على بؤسهما كأنهما مسجونان في علبة وسط شمس حارقة وشوارع مختنقة بالغبار، حاولت إرغام نفسها على الفرح، لكن عبثاً، فداخلها مُطفئ وبخّت نفسها على ذبولها وبدت لها الساعات الطويلة التي تنتظرها معه ثقيلة تنبهت فجأة لشعور مباغت دلّها كم أن روحها جريحة، وبأنها ستعجز عن تحمل تجربة مفتعلة مع رجل تشعر نحوه بالذنب لأنها شجعته على زيارتها ليخوضا مغامرة عاطفية

هوجاء، تمنت لويحدث اصطدام وتتحطم سيارته كي يعفيهما القدر من تلك التمثيلية، فكرت كم أن الحب يظل دوماً موضع شك أما الكره فمؤكد دوماً. الحب زائف أما الكره فحقيقي.

«حب في زمن العولمة» هذا ما ينجح ذهنها بابتداعه، أخبرته بأنّها استأجرت شاليه ليلتقيا وبأن الوقت لم يسمح لها بتفحص الشاليه بدقة، إذ أنها تخشى نظرات الفضوليين، أثرّ فيها لطفه، رغم إحساسها أنه يجاهد ليبدوطبيعياً، وليفهمها أنه سعيد، لكنها كانت مؤكدة أنه يحدث نفسه على النحوالتالي: هل تستأهل تلك المرأة الغريبة أن أستيقظ باكراً وأقود سيارتي أربع ساعات متواصلة لأراها.

أحست بخيبة لأنه لم يُطر شكلها أبداً، لماذا لا يقول لها ولومن باب المجاملة تبدين جَذابة وجميلة، استسخفت نفسها كونها تنتظر غزلاً، دلته على طريق الشاليه المعزولة والقريبة من البحر، وحين دخلاها كانا منهارين من الحر والرطوبة وقد التصقت ثيابهما بجسديهما غزتها رائحة عرقه أكثر فأكثر، قماش قميصه يرسم دائرتين رطبتين كبيرتين تحت إبطيه، لكن العتمة النسبية أدخلت نوعاً من الهدوء إلى روحها المضطربة، أحاط خصرها بذراعيه وتبادلا قبلات فماً لفم، قبلات يفرضها الموقف وليست نابعة من الشوق، الشيء الوحيد الذي كانت تتمناه بكل جوارحها أن تتحرر من حمّالة نهديها تحديداً لأنها ملتصقة بشدة بنهديها، فكرت بسخرية أليمة أن الأشهر الطويلة الطويلة التي قضتها تتحرق للقاء رجل تنجذب إليه تُكلل بالكآبة الخانقة، كانت لا تجرؤ على أن تعبر عن عمق خيبتها، فتركت مشاعرها تنبثق من عينيها، إنها هنا في هذه الشاليه البائسة مع

رجل قاد سيارته في الشمس أربع ساعات متواصلة ليلقاها من أجل لا شيء، وبدون ذرة حب!! اكتشفا طعم شفاههما، كان يمكن لمشاعرها أن تُثار، لكن رائحة عرقه المتفاقمة أحبطت شهيتها للحب، لكنها أدركت أن ما من مفر للتراجع، بدأت شيئاً فشيئاً تفقد إحساسها بذاتها، وبدأ ألم روحها ينغلق على ذاته ويعتصم بالصمت، حدثت نفسها بأن العلاقة بين المرأة والرجل أشبه بمأزق أحياناً، وفي بعض الحالات يجب الاستمرار في الخداع لأن التراجع مؤذ ومهين للطرفين.

تحسست جذعه الضخم مكتشفة كَم أن السمنة منفّرة. بدت لها راحة يدها صغيرة وهي تنزلق بين ثنيات لحمه، آه كيف انطفأت شهوتها له كلياً، من أين غزاها كل هذا الموات؟ وأين تلك الأشواق الملتهبة التي نمت بينهما عبر سماعة الهاتف؟!..

أي قدر ساخر يعبث بهما؟ ما بها مثل امرأة مات جهازها العصبي، كان يتحسس براحتيه الضخمتين نهديها وخصرها ومؤخرتها دون أن تحرك فيها يديه أي شعور ووجدت أن من واجبها مداعبة جذعه الضخم الذي تنضغط فيه، كانت تشعر بأنّها جماد، وتحت قمة هرم كرشه قاد يدها إلى عضوه المنتصب، فكرت في أنه يجب أن يكون متناسباً مع ضخامة جذعه، أضحكتها تلك الفكرة، فانفلتت منها ضحكة عفوية، اعتقدَ أنها تضحك كي تداري خجلها، بدا منتشياً وهويثبت لها قدرته الجنسية، ولا تعرف لماذا أحست بضرورة اللجوء لشيء من الدعابة فالوضع بينهما معقد وأصبح بالنسبة لها لا يطاق، هناك شيء خانق بينهما وحولهما، لا تعرف تحديد ماهيته،

قالت له أنها تقرأ ألف ليلة وليلة وأنّ عضو الرجل يُسمى مولانا، ضحك مكرراً ما قالته، تعمدت أن يتغازلا تحت مروحة سقفية وحيدة صدئة ومتعبة لكثرة ما شهدت من خيبات العشاق، تحرك الهواء قليلاً حولهما لكن الرطوبة غير محتملة، أثاث الشاليه قديم ومخلّع وتفوح منه رائحة رطوبة عفنة وقديمة، قادها إلى غرفة بائسة ليتمددا على فراش بلا شراشف، فرشة عتيقة عارية، خلع قميصه فخنقتها رائحة عرقه وأصابتها بغثيان حاد، تمنت لوتملك الجرأة وتطلب إليه أن يستحم، حسدت العشاق والأزواج الذين تربطهم الحميمية، مع هذا الغريب كيف ستطلب إليه أن يستحم ؟ لكن عجباً ألا تزعجه رائحة جسده ؟! نابع نزع ثيابه وجوربيه وهي تتفرج عليه شاعرةً بأنّها تهبط أكثر فأكثر في قاع الإحباط وبدأ إحساسها بالورطة يتعاظم، كلاهما متورط، آه كم تتمنى لويحدث أي ظرف خارجي ليوقف تلك المهزلة المؤلمة بينهما، أبدت انزعاجها من الضوء، كم هوصعب أن يتعرى رجل وامرأة للمرة الأولى تحت النور، قالت له: ليتنا التقينا في الظلام، أحسّا بالخجل من وضاعة المكان، انتبهت إلى أن هناك سلسلة من البقع الوردية تغطي كرشه وخاصرتيه، بحلقت فيها محاولة اكتشاف ماهيتها، سألته عن تلك البقع فقال أنها نوع من الفطر اسمه النخالية المبرقشة، تقززت وانغلقت داخل نفسها كما لوأنها ترغب في أن تسكن قوقعة، ودت لوتصرخ به: لكن الفطر يعدي وقد أصاب بالعدوى؟!

لكنها كبحت صراخ احتجاجها، فعليها أن تتابع هذا اللقاء الجهنمي حتى لوكان صديقها مصاباً بالجذام، كان جسده

مواربا وفوق جسدها بقليل، وتفرجت على نفسها كالمشلولة وهي مضغوطة إلى كرشه الرطب الممتلئ ببقع الفطر، ووجها على مستوى زنده الضخم الرطب وجوف إبطه الذي ينفث رائحة تجعلها تدوخ من الغثيان، كان وضعها بائساً لدرجة أحست أن التفكير بأية محاولة للنجاة لن ينفع، همس بأذنها: لا زلت تحافظين على شبابك، ذكرتها تلك العبارة بعمرها، بشبابها في طريقه للأفول، أحست بالأذى من كلامه هو الذي افترض أنه سيبهجها، لم تستطع أن تطريه بكلمة فبدانته مُشوهة فعلاً بكتل الشحم المرصوصة على كتفيه وصدره وخصره، كان يتنفس بصعوبة لأنه مدمن التدخين ولوهلة أحسته سيموت بين ذراعيها، كانا مُحاصرين في حتمية جنس كئيب باهت وميت، ولم يملك أي منهما شجاعة فك اشتباك هذين الجسدين الغريبين والهروب، كان محكوماً بها وهي محكومة به، لم يعد جسده يعني لها شيئاً إنه كتلة صماء لا تنقل لها أي إحساس، وهي مؤكدّة أنها لا تبث فيه إحساساً، وبدا لها عريهما تافهاً وليس فيه أية إثارة، صار انهيارها النفسي متسارعاً لدرجة خشيت أن تفقد الحد الأدنى من اللباقة واللطف معه اللازمين لمعاملته كضيف على الأقل، تزايد دَبق جسديهما، كم كانت تحلم بالاستحمام، التصق شعرها برأسها من التعرق، أما جسده فكان يبث روائح خانقة تزداد كثافة في فضاء الغرفة، حتى كادت تُصاب بالإغماء، نجحت أخيراً في التملص من هذا العري المهين واقترحت أن يذهبا لتناول الغداء، ارتديا ملابسهما وخرجا إلى حر الظهيرة، لم ترحمهما الشمس التي كان بها فجور وغضب، وكم كانا مرهقين وهما

يتبادلان ابتسامات المجاملة في مطعم شعبي بجوار البحر، قدّم لهما سمكاً مشوياً محفوفاً بالذباب وصحن خضار مرتب بطريقة تدل على قلة الذوق، القذارة تحوم حول المكان، وغير بعيد عنهما مجموعة من النسوة يسبحن بكامل ثيابهن ورؤوسهن مغطاة، كانت تخجل من أن تتثاءب أوأن تسمح لمشاعرها الحقيقية برسم ملامحها، لم يكونا سوى عاشقين زائفين وبائسين، رغبا بالمتعة فحصدا الكآبة، بعد الغداء كان لزاماً عليهما أن يعودا للشاليه ليستأنفا غراماً زائفاً كانا قد بد آه، عادا للتعري وهي تقول ساخرة من نفسها: عدنا للمهزلة ! ! اقترحت عليه أن يضع الفرشة البائسة على الأرض تحت المروحة السقفية الوحيدة، فرز خيالها صوراً مخيفة لرجال شرطة يدهمون المكان ويضبطانهما بالجرم، إنهما عاهران بنظر القانون، بدقة أكبر، وحدها العاهرة، أما الرجل فلا يوصف بتلك الصفة، قرأت ذات يوم أنه يمكن لرجل يضاجع عاهرة أن يسلمها بنفسه لقسم مكافحة الدعارة!! كان التعب قد هدّها تماماً، لم تكن بحاجة سوى للاستحمام بالماء الفاتر والنوم لكنها متورطة مع هذا الجسد الهائل لإكمال مسرحية بدأت ولن يسمح لها القدر ببترها، استأنفا العناق واللمسات، وهي تشعر كم يزداد جسدها مواتاً، وبدأ التعب يذله، فانطفأت قدرته الجنسية، وغدا عنيناً، أحست كم يؤلمه ويحرجه هذا الوضع، وكم يبذل جهوداً كبيرة ليداري خجله وارتباكه، أوهمته أنها غير متأثرة بانطفائه، طلب إليها أن تساعده وأن تبذل جهداً ليستعيد قدرته الاقتحامية، لكن جسده صار يوغل في عنانته، فكرت كم هومُهين موقف رجل في

وضعه ولا تعرف لماذا أحست بالشماتة منه ثم من كل الرجال، أحست بالرضى كون الأنثى طرفاً متلقياً في الجنس، حاولت أن تؤاسيه فقالت له بأن التعب ونقص النّوم والحر جعلته متعباً، وافقها للحال على كلامها، طلبت إليه أن يذهبا إلى مقهى جميل ليشربا القهوة، انطلقا مجدداً في رحلة تسكعهما المنهكة والمدمرة للأعصاب والتي يعجز أي منهما عن إيقافها، ما عادت تطيق الحر، الرطوبة والحر يدخلانها في حالة عصبية يتطلب لجمها جهداً جباراً، وجهها يرسم الابتسامة البلهاء ذاتها، تجولا في طرق ريفية، وبدأت الشمس أخيراً تقارب المغيب، أحست أنها تتنفس الصعداء فالوقت يمر عادا إلى الشاليه متسللين كلصين وبإعياء أقرب لليأس تعريا، كم أحست أن واجبها ثقيل ثقيل تجاه هذا الضيف الغريب الذي عليها أن تعيره جسدها، شعرت بفرح مبطن بالخيبة وهي تتفرج على جسده موغلاً في عنانته، لا تعرف لماذا شعرت بسعادة خبيثة وهي تراقب جسد المارد يلهث ويجاهد ليثبت فحولته، سخرت منه وهي تردد بصمت وبلهجة غنائية لا حياة لمن تنادي، لا حياة لمن تنادي. كان نظرها معلقاً بأجنحة المروحة السقفية التي أحستها شاهدة على خيبتهما، تحول صوت تنفسه لما يشبه الدوي يملأ الفراغ حولهما.

خافت عليه حقاً من الانهيار، وحين طلبت إليه أن يوصلها إلى منزلها لم يحاول استبقاءها، بل أحست براحته وانتظاره المتلهف لذهابها فلتتركه يلملم تعبه وهزيمته.

كانت بحالة انهيار نفسي وجسدي حين صعدت الدرج مستندة على الدرابزين لأنها أحست أن قواها نزّت منها كلياً

ورغم إنهاكها، أجبرت نفسها على الاغتسال كي تطرد رائحته، ابتلعت حبة منومة، ثم حبة مهدئة، وبدأت تلاويح الفجر تتسلل مداعبة أهدابها المُسهدة، كانت بحالة مخيفة من التوتر وهي تحاول طرد صور تنتهكها، صور لقاء دمّرها، أرادته لقاء حب وفرح ونشوة. . . لكنه كان كارثياً. ترى هل صار الحب انتهاكاً في هذا الزمن؟!

أهذا شكل الحب في عصر العولمة؟!.

٨

وَلَــــه

«أن نتعلّم الحكمة هو أن نتعلم كيف يولد الحب بلا ألم».
هذا ما كانت تقوله لنفسها وهي جالسة بجانبه شاعرة كم أن قلبها أعزل في تلّقي طوفان من العواطف الطازجة والمباغتة.
كانا يرشفان نبيذاً أحمراً ويطعمان بعضهما البعض لوزاً مالحاً.
المقاعد فارغة في المقهى والمرآة الكبيرة الدخانية تعكس صورتهما كاحتمال عاشقين، صاحب المقهى شاب لطيف، اختار لهما موسيقى يونانية تفجّر الأحاسيس من ينابيعها العميقة في الروح، عيناها اللتان تراه بهما هما عينا النظرة الأولى. إنها سعيدة مع هذا الغريب القريب إلى حدّ الوجع، كانت تعي كم هي مشدودة إليه وكم أن وجوده قربها يعطيها حقنة من الوجد، أحست بخجل لأنها لا تفهم فوران مشاعرها العنيف نحوه، إنها تجهل ما يحدث بداخلها. . . . لكن لمَ عليها أن تضبط نفسها؟ لمَ لا تحيا في اللحظة الحاضرة بكل طاقتها على الإحساسَ؟ قررتْ ألا تفسد اللحظة بالتفكير، تركت يدها

تكتشف لغة الجلد التي لا تفوقها لغة، راحة يده الساخنة كرغيف تداعب وجهها وتمتد إلى عنقها، أغمضت عينيها منتشية متذكرةً أنها لم تفعل شيئاً طوال حياتها سوى إطفاء فوران مشاعرها تحت ستار «التعقّل»، فجأة انتفضت، حدّجت فيه بافتتان وسألته وهي تبعده عنها: أريد أن أسألك سؤالاً.

قال: لا تفسدي اللحظة بالكلمات.

ضحكت، رشفت جرعة كبيرة من النبيذ، وقبل أن تبتلعها، قبلته قبلة ندية، أطلق الكحول عفويتها سألته: لماذا تدخل الانفعالات ضمن إطار المحرّمات؟!.

أبدى تضجّره من سؤالها، لم يكن راغباً بالكلام، ما جدوى الكلام أمام لغة الجلد والأحاسيس؟ جذبها من كتفيها، التصقت به شاعرةً بأنّ ثمارها نضجت فجأة، امتدت يدها تفك أزرار قميصه وتتلمس الجسد الدافئ المشدود، كانت تحدث نفسها طوال الوقت: لماذا عليّ أن أضبط نفسي؟

إنها تعرف تماماً أنه ليس لها، وأن له عالمه الخاص، أولاد، زوجة، مهنة تقيدّه لكنها تدرك في كل لحظة أنها تتذوق الحياة معه، إنها ترغم نفسها على الاقتناع بما تهبه لها اللحظة الحاضرة. هذا هوعمر الحكمة، حيث نقنع أنفسنا بأنّ الحب يولد بلا ألم.

من حين لآخر كانت تفتح عينيها لتتفرج على صور عناقهما في المرآة الدخانية الكبيرة، لم تبال إن كان صاحب المقهى يتجسس عليهما، لأول مرة لا تشعرَ أنها آثمة. بدا لها الزمن كشيء متفجر غريب وثقيل، آه لويعرف الإنسان أن اللحظة يمكن أن تضم الأبدية أحياناً. حرارة الشوق تتصاعد مع كأس

النبيذ الثالث تشعر بأنّ النبيذ دمها، ضحكات النشوة القصيرة المباغتة تقطع عناقهما، هكذا هي السعادة بسيطة ومستعصية في الوقت نفسه والأهم من كل ذلك أنها مباغتة ولا منطقية. أبعدته عنها، سرّحت شعرها بأصابعها قائلة بمرح: استراحة.

تساءل: استراحة! من ماذا؟

- من هذا العناق الذي يشبه الالتهام.

لم يكن راغباً في الكلام، أشعل سيجارة، أنبتّه لأنه يكثر التدخين، وأنّها لن تذكره بأضرار هذا السم لأنه يعرف. أشعل سيجارة أخرى وقدمها لها، ضحكت، نفثت الدخان بتلذذ قائلة: السم لذيذ من يد نحبها.

لمست خديها بظاهر يدها، شاعرة بأنّ اللهب يطفح منهما، شعرت بأن من واجبها أن تحدثه عن حياتها، انطفأ حديثها عند الجملة الثانية، بدت تفاصيل أيامها باهتة ونائية، ولم يبقَ من كل ما مضى سوى شغفها به. فجأة دمعت عيناها وهي تشعر بأنّ وجودها معه يجعل أبواباً موصدة في روحها تتفتح، سألها عن سر ارتشاح عينيها بالدموع: قالت: دخان السجائر.

أطفأ السيجارة وسحبها من يدها: تعالي، لم أعد أتحمّل البقاء هنا.

لم تسأله إلى أين يمضيان، رغم أنها عارفة أن فراشاً ضيقاً سيضمهما بعد قليل، أدهشها أنها لم تسأله شيئاً وهو يقود السيارة في شوارع تجهلها، إنها مستعدة لأن تذهب معه إلى الجحيم، كانت تتأمل وجهه الجانبي شاعرة بأنّه يشبه الحياة، غزتها مشاعر مباغتة من الندم الذي يسبق الخطيئة، لكنه أضعف من أن يمنعها، لكنها لم تبالِ فهي ماضية في طريق

الغواية، الغواية المستترة في طيّات زمن باهت. . . آه لن تفسد اللحظة بالتفكير، ولن تفكر موّلدة الفكرة من الفكرة كما تعودت. توقفت السيارة في شارع ضيق، كانت عتمة بنفسجية تغلّفهما كوشاح، مدخل البناية معتم، سألته هامسة: هل الكهرباء مقطوعة؟ شدّ على يدها وهويقودها إلى المصعد. ما أن دخلا العلبة الضيقة حتى التحما نافذي الصبر في عناق لاهث ضغط الزر رقم ٦ فشعرت بأنّها تطير إلى السماء.

٩

الصياد

غاليتي منال :

أتساءل لوكنت هنا، هل كنتُ لأتجرأ وأُسقط الستارة أمامك لأريك مسرَح أفكاري وأحاسيسي، التي احتجتُ - أنا نفسي - لفترة طويلة كي أملك شجاعة مواجهتها؟

وكثيراً ما يبدولي أن مواجهة الإنسان غيره أسهل عليه بكثير من مواجهة نفسه بصدق ونزاهة.

منال الغالية : أنت صديقة حميمة رغم سنوات الغربة التي تبعدنا عن بعضنا البعَض، لكن تلك الغربة تحديداً وعملك في مجلة نسائية شهيرة شجّعاني على أن أكتب لك خصوصاً أنك رئيسة تحرير صفحة بريد القراء، وصفحة - عندي مشكلة - كم تعجبني حلولك للمشاكل يا منال فأنت لا تقدمين حلاً واضحاً كما لوأنه وصفة جاهزة، بل تكتفين بتحليل أسباب المشكلة وكشف دوافع سلوك شخوصها، عندئذ يشعر القارئ من تلقاء نفسه بأنّه اهتدى إلى الحل، كنتُ أعتقد يا منال أن

المشكلة وأفضل استعمال كلمة حالة التي سأرسلها لك خاصة، لكني فوجئت أن هنالك مئات الحالات المشابهة. لا شيء أروع من البوح الصادق بين الناس، إذاً لم أكن حالة خاصة ومع الزمن اكتشف يوماً بعد يوم أن كل ما نعتبره خاصاً ولا يحدث إلا معنا هو شائع ومشترك بين الناس.

تستحضرني ذكرى بعيدة يا منال، ذكرى تترك في نفسي الآن عكس الانطباع الذي تركته وقتها، غريب أمر الذاكرة، إنها تعيد تركيب الحدث وتغيّر الإحساس به، أعود لدفتر مذكراتي وأقرأ ما كتبته منذ سنوات في وصف تلك القبلة السحرية: كنتُ بحالة انخطاف مستسلمة لذلك العناق الذي أحسسته يرفعني شيئاً فشيئاً إلى السماء منتشية بأنفاسه الدافئة التي تلفح وجهي، وشفتيه اللتين لا تعطياني فترة للراحة..... الخ) لا أستطيع أن أكمل هذا الهراء يا منال، لأني أحس بالاشمئزاز والقرف - الآن - كلما استعدتُ بذاكرتي تلك القبلة.

لماذا نكتب إذاً، إذا كانت الذاكرة تُعيد إنتاج ما نكتبه حسب هواها؟ هل يجب أن نكتب كي لا نضيع؟ أقول لنفسي هذا الخط خطي، وأنا من كتب هذه السطور، أحس كمن يصفعني، أبعد الدفتر عني، أرغب في تمزيقه، لكني أعدل عن رغبتي، إذ أحس أني لا أملك الحق في الاعتداء على تلك الإنسانة التي كُنتها.

هل تذكرين تلك السهرة يا منال، كلٍ منا لفقت كذبة محكمة قدّمتها للسلطة العليا - الأهل - كيٍ نتمكن من السهر مع الحبيب، في تلك الليلة كان كل شيء ساحراً وحين أستعيدها أشعر بأنّي استعيد حلماً، ضوء القمر البدر، وأمواج

البحر اللطيفة التي تغازل رمل الشاطئ الناعم مصدرة حفيفاً كحفيف القبلات، والبدايات الجميلة لقصص الحب، لمعان العيون، اللمسات الخاطفة، والأحلام التي تحف برؤوسنا كسرب فراشات ملونة.

كم يحزنني يا منال أننا رغم صداقتنا ما كنا نجرؤ أن نبوح لبعضنا البعض بأسرارنا، أذكر أني اتصلتُ بك ودعوتك للعشاء مع صديق، قبلتِ للحال واستأذنتني أن يصحبكِ صديق لك.

صديق! كلمة مطاطة ضبابية تنفي الشبهات والتهم. ترى لم التحفظ؟ ممَ نخاف؟ لا أظنه خوفاً لكنه إحساس عميق بالإثم، كوننا نعيش في علاقة غير شرعية، هذا الإثم اللعين الذي يظل ينخر في نفوسنا كما ينخر الدود في الخشب ويفسد علينا أية بهجة.

لماذا ينتابني كل هذا الغثيان والقرف حين استعيد تلك الذكريات التي تخص علاقتي به؟ الرجل الذي كان اسمه الحبيب !! يحررني الزمن من الأوهام، فأستطيع أن أرى نفسي بوضوح كيف كنتُ، أجل يا منال، وأنت تعرفين، كنت في قمة إحباطي وقد ضاع حلمي بالسفر رغَم مؤهلاتي العلمية وحصولي على شهادة الهندسة المعمارية بتقدير جيد جداً. فضلوا عليَّ أخرى، مدعومة، ولديها واسطة لا يمكن ردّها، كم أصابتني تلك الحادثة بالأذى والقهر، زاد من إحباطي المهني، إحباطي العاطفي أيضاً، كنتُ أجر ذيول فشل ثلاث خطبات متلاحقة، حتى آمنتُ أن كل عريس يتقدم لي سأفشل معه لأني منحوسة.

كنتُ وقتئذ في بحالة مثالية لأرتمي بأي حضن، لأبكي على كتف أي رجَلٍ، كنتُ أحتاج للاستسلام لعناق غامض، وهوعرفني وأنا في أوج أزماتي وإحساسي باليأس والتخلي.

ما كان بإمكاني أبداً أن أفهم وقتها كم هوصيّاد. رجل بخبرته الواسعة في الحياة والنساء، قرأ بسهولة الحاجة والضياع في عينيّ، أتذكرين الطقوس المسرحية التي قام بها في السهرة: يقطف لي وردة، ويغرسها بعناية في شعري، متعمداً أن تلامس أصابعه رقبتي برقة، مكهرباً جلدي بالرغبة، ثم ارتجاله لشعر لطيف مستوحى من وجهي والقمر البدر، مقارناً بينهما، مُفضلاً قمري! وأخيراً كيف نزع قميصه متباهياً بجدعه الممشوق البرونزي، وكيف أخذ يرش رذاذ الموج على صدره وكتفيه.

لقد فتنني حقاً، لدرجة انتشيتُ بصوته النشاز وهويغني لفيروز، هذا العاشق بامتياز هوصيّاد لا يخطئ هدفه، أكثر ما فتنتني عفويته التي أدرك الآن كم كانت مدروسة لدرجة تبدوطازجة وحقيقية، أكثر ما تفتنني العفوية، لأنهم في هذا البلد يعتبرون قتل العفوية هوذاته العملية التربوية، العفوية بطانة الإبداع والخلق، لذلك اعتبرتُ هذا الرجل مبدعاً، فناناً في العشق والحياة.

أتخيلّ نظرة الاحتجاج في عينيك الذكيتين، ستقولين لي: لكنه أحبك كثيراً، وأنّك كنت شاهدة على حبه لي، قد يكون أحبني، لكنه حب الصياد لفَريسته، ربما الرجل العربي لا يستطيع أن يحب إلا بعقلية الغازي، فما أن يميل إلى امرأة أويبدأ بحبها، حتى يسيطر على تفكيره هاجس وحيد: متى

سأحصل عليها؟ متى سأضاجعها؟ كيف سأسيطر عليها، وأضعها في قلبي مغلقاً عليها سجن أضلاعي، لأنه يشعر في أعماقه - وربما عن غير وعي منه - أن كل ما يناله من هذه المرأة مكسبٌ وامتياز، أما المرأة فتشعر حين تفشل علاقتها مع من تُحب - مهما كانت الأسباب - بأنّها خسرت وأُهينت، وانخفضت أسهمها في سوق الزواج ! لماذا لا يحس الرجل والمرأة بالندية؟ ابحثي في الأسباب الحقيقية والعميقة يا منال فهذا مجال عملك واختصاصك.

أعود لتلك السهرة يا صديقتي، تلك السهرة الساحرة التي انتهت فجراً، كنا بحالة نصف صحو، نصف نوم، منتشين بالقمر والنبيذ والغزل، ورغم حالة النعاس والتعب الشديد اللذين كنتُ فيهما، فإنه أصرّ وهويوصلني إلى البيت على أن نتبادل قبلات حارة، إصراره لم يكن لرغبته الشديدة بي، بل لأنه وضع برنامجاً للعلاقة، وأنّ هذه السهرة يجب أن تتمخض عن إنجاز مهم: القبلات. وفي الأيام التالية سيكون البرنامج مختلفاً، سيغزوبقوة أكبر وعزم لا يخطئ، ويحصل علي تحت شعار براق ولا شيء يفوقه خداعاً: الحب.

هذا ما حصل تماماً يا منال، أفكر الآن وطعم المرارة طاغ في فمي وروحي لِمَ استسلمتُ له بسهولة؟ يا لإحساس المهانة ما أصعبه، بدوتُ مسلوبة الإرادة تماماً، مشلولة، عقلي مسترخ كأنه تحت تأثير مخدّر، دعاني للغداء في الشاليه، رفضت، فأصر مؤكداً لي أنه لن يقوم بأي تصرف إلا بموافقتي، تأكيده هذا أشعرني بأنّي متخلفة وامرأة غير عصرية إذ تنظر للرجل كذئب يريد افتراسها، لبيتُ الدعوة وأنا أوهم

نفسي أنه يستحيل أن استسلم له وأنا لا أعرفه إلا منذ أيام. لكن ديكورات الغرام كانت مثالية، الستائر الوردية المسدلة على النوافذ، الموسيقى الناعمة الرومانسية، النبيذ الفاخر، واللوز المنقوع بالثلج والذي يعرف كم أحبه، كان يقشر لي لوزة بعد لوزة ويضعها في فمي لتلامس أصابعه شفتي، فيداعبهما، إصراره على أن يرشف النبيذ من شفتي المبللتين بسائل الغواية... ما كنتُ مؤكّدة أني لستُ راغبة بممارسة الجنس معه، لكني كنتُ في فخ الغواية القسرية، إن كان يمكنني ابتداع هذا التعبير. كنا في غرفة وحيدة حيث سرير عريض أنيق ينتظرنا كوحش يفغر فاه لابتلاعنا.

أحياناً أفكر لوأن الشاليه كانت مؤلفة من غرفتين أما كنتُ نجوتُ من هذا الوصال؟ لكن السرير الفارغ كان كنداء وحشي وعويل عميق لغرائزي التي طال قمعها حتى كادت تهترئ، ميزة هذا الرجل أنه يُتقن الصبر ويوحي لمن معه أنه غير مستعجل، وأنه لا يبيّت أية نية مسبقة، لكنه في الوقت ذاته يعطيني إحساساً مؤكداً، لا أعرف من أين يغزوني أن وصالنا حاصل لا محالة. كيف يتقن تلك المعادلة، لا أعرف؟ وهكذا وجدتُ نفسي من دون أية قناعة مني ودون أن يطلب مباشرة عارية بين ذراعيه على السرير العريض، كنتُ أشعر كأنه نوّمني مغناطيسياً، وكان من الصعب علي الفرار من هذا الاحتمال.

بعد تلك الممارسة المُنهكة والتي حاول من خلالها استعراض كل فنون الجنس التي يعرفها، والتي يريد أن يزودني بها كما لوأنه يعطيني درساً خاصاً. بعد ذلك الوصال كان يمكن أن أبتعد لأرتب أفكاري المشوشة ومشاعري الأكثر تشوشاً،

لأفهم أين أنا من هذه العلاقة؟ ومن هذا الرجل؟ وما الذي حدث بيننا؟ لأفهم كيف بقيت عارية ساعتين فوق سرير عريض دون قناعة فعلية مني!! كنت أحتاج أن أعرف كيف قام هذا الرجل فجأة في قلب حياتي؟ لا يترك لي مجالاً للتنفس، أحسه تحت جلدي مشوشاً أفكاري كما لوأن صوت مذياع رديء يستمر بالتشويش في أذني، كان عارفاً بخبرته كصيّاد أنه يجب أن يُحكم الخناق عليّ لأن قبضته لوارتخت قليلاً حول عنقي فسأفر منه بكل طاقتي على الهروب. إذ أنه عكس مبادئي أن أقيم علاقة مع رجل متزوج.

المشكلة الجوهرية يا منال أن المجتمع، وكما يجبرك على طريقة في العيش والسلوك فإنه يجبرك على ما هوأخطر - الإحساس - إنه يلقننا أحاسيسنا ويعلمنا كيف يجب أن نشعر في كل موقف نتعرض له. لذا فقد أحسستُ بانكسار كبير حين استسلمتُ له، كأنه بعد ذلك الوصال قد كسرني واستولى على سوري المنيع، شعرتُ بأنّه اقتحم قلعة شرفي واحتلّها وصار سيداً، عرف حميمية جسدي فامتلكني، بمعنى انتصر عليّ، إنه الآن رجلي وله الحق عليّ، فقد صرتُ خاصته وملكيته، آه يا منال كم أحس بفظاعة هذه الأفكار، لماذا أحسستُ هكذا؟ كان بإمكاني الابتعاد، تجربة حدثت رغماً عني وكفى... من جعلني أحسّ هكذا؟ كيف يتسللون إلى أعماق عصبونات إحساسنا فيجبروننا على أن نحس كما يفترض بأنثى أن تحس في هذا الشرق العربي التعيس.

المضحك أنه رغم شهادتي العلمية العالية وتفوقي قد أقفلتُ

محاكمتي العقلية واستسهلتُ الاستسلام لدوامة الحب المخادع، ربما استمريت بعلاقتي معه لخوفي من ألا يكون لدي علاقة، فقد كنا كذلك من جيل الثورة الجنسية الذي يعتبر أن الكبت وعدم معايشة أية خبرة جنسية عقدة نفسية خطيرة ! كنا مضللين بتلك الأفكار المخادعة التي تجبرنا على معايشة علاقات جنسية وعاطفية مشوهة وبالسر تماماً كي نثبت لنفسنا أننا غير معقدّين !! جعلني استسلامي لعيش علاقة معه أدرك الدور الرهيب الذي يؤديه الكبت الجنسي في حياتنا، وهوكان عارفاً تلك الناحية الحساسة، فكان الجنس تمثيلية متقنة يقوم بها ليهيمن عليّ، ويفتنني معتمداً على قلة خبرتي إن لم أقل انعدامها، وعلى الكبت الطويل الطويل الذي أوهن أعصابي وجعلني أعيش في حالة أقرب لما تكون تزاوجاً بين اللامبالاة واليأس.

«خيمة أطبقت عليّ» هذا شعوري دوماً يا منال وأنا معه، شيء انقض علي فجأة وما عاد بالإمكان الفكاك منه وكلما حاولت التململ والإفلات من أخطبوط تلك العلاقة أسرع يطبق علي مسخفاً أفكاري ومتهماً إياي بالرجعية.

تعاسته الزوجية هي الوتر الذي يعزف عليه، لكنه لن يطلّق زوجته إكراماً لأولاده. اسطوانة ممجوجة يستعملها المتزوجون ليبرروا خياناتهم، لكني تمكنتُ بعد أشهر من شحذ قواي والصراخ بكل طاقة كياني الذي يضجّ بالرفض له: لا أريد الاستمرار في هذه العلاقة، لا أريد أن أعيش علاقة مع متزوج.

هل تصدقينني يا منال لوقلتُ لك أنني أحسستُ بالانهيار

وأنا أبعده عني، فقد صارت علاقتي معه أشبه بلعبة ليّ الذراع، من يلوي ذراع شريكه؟ ما كان يسمح لي بتركه، يقول إنّ هذا ليس من حقي؟! مضخماً لي روعة الحب العظيم بيننا وخسارتنا الفادحة لوخسرناه!! وفي كل مرة كنتُ أصرّ على قطع تلك العلاقة، كان يداهمني بأسلحته الهجومية، يحتضنني بقوة كما لوأنه يريد تكسير أضلاعي - ورأسي أيضاً - يفترسني بقبلاته، ويحاول رغماً عني أن ينزع عني ثيابي، مفسراً ممانعتي بأنها دلال وخجل!! فأخرج من هذا العراك لا هثة، منفوشة الشعر، مبلبلة الأحاسيس، كم كنتُ بلهاء ومضللة، كنتُ أحاول تفسير ما يحدث بأنه شدة حبه لي ورغبته فيّ، ولم يخطر لي أنه محاولة اغتصاب!.

أخيراً فررتُ، ابتسم لي الحظ وسافرت في بعثة إلى لندن لمدة عامين ورغم إصراري على ألا يعرف عنواني، إلا أنه تمكن بالحيلة من الحصول عليه عن طريق صديقة لي. وبدأت رسائله تنهال علي عبر الانترنيت. في البداية كنتُ أرد بدافع المجاملة وحاولت أن أجد فيها نوعاً من العزاء في غربتي القاسية، ثم كففتُ عن الرد لأنه بدأ يعزف على وتر الحب الضائع. هجوم رسائله لم يكن دليل حب، بل رغبة جامحة بامتلاكي، بإشعاري كل يوم بأنّ له حقّاً عليّ لأنه ضاجعني ذات يوم!!..... يا للعقلية المتخلفة والمقرفة لمعظم رجالنا. المهم يا منال فُوجئتُ بأنّي صرتُ أخافه، أزعجني جداً هذا الإحساس، وكنت أحاول أن أفكر بهدوء وبمنطق عقلاني لأعرف سبب خوفي منه لكني لم أتوصل لأي تفسير... أظنه الخوف الخام والمبهم المتوارث عبر أجيال والذي تحسه

المرأة تجاه الرجل، فالرجل سيد ومتسلط، غير مؤطر بثالوث الرعب: السمعة، العفة، العذرية. والأنثى هي الأضعف، هي الأشبه بالزجاج الرقيق والذي إذا كُسر لا يمكن إصلاحه ورُمي في القمامة، هكذا يقدموننا للحياة، يفصلّون لنا الشخصيات التي سنلبسها كما نلبس ثيابنا.

حين عُدت إلى الوطن كان أول من هجم ليقول لي: الحمد لله على السلامة، وحين امتدت يده ليصافحني، ضغطت أصابعه بقوة هائلة على أصابعي كأنه يريد أن يذكرني بأنّه ضاجعني ذات يوم، عصف بي غضب هائل وغثيان فظيع، لكني تجاهلتُ مصافحته وسألته عن زوجته وأولاده، لا أعرف لماذا يحس بغيظ شديد كلما سألته عن زوجته، من حسن الحظ أنه انتقل ليعيش في مدينة أخرى، لكنه صار يباغتني باتصاله بي في أوقات متباعدة، ولم يعد يلّمح لما كان بيننا، ولا يطلب لقائي، كل غايته أن يطمئن علي ويشم أخباري بفضول يعجز عن مداراته، وفي كل مرة يسألني: ألا يوجد رجل في حياتك؟!

وكم كنتُ أود لو أصرخ به: لا يحق لك أن تسأل هذا السؤال. لكني كنتُ أكبح احتجاجي.

إلى أن صرخت به ذات يوم: لا يحق لك أن تسأل هذا السؤال.

فقال بثقة المالك: كيف! أنا من يحق لي أن أسألك ما أشاء.

كلامه يعني تحديداً: بما أنني ضاجعتك ذات يوم، فأنا لي الحق بك مدى الحياة!! وليس لك أية خصوصية تخفينها

عني!!.

هل أضجرتك يا منال؟ لكن لدي إحساس عميق أنك تفهمينني بمحبتك وذكائك حتى آخر كلمة سأقولها، المهم يا غاليتي، صار يزورني في أوقات متباعدة بحجة أنه في مدينتي لانشغاله ببعض الأمور! وفي كل مرة كان يدخل مكتبي بالطريقة الغازية ذاتها وكنا نتبادل قبلات الأصدقاء كعادة المثقفين مدّعي التحرر، لكنه في كل مرة كان يتعمد بطريقة تبدو عفوية أن تلامس شفتاه طرف فمي، ثم كان يشحذ عينيه بكل شهوته الزنخة متعمداً أن يذكرني بأكثر اللحظات حميمية في وصالنا... كنتُ أبذل جهداً خرافياً كي أبدو لا أفهم شيئاً وأظل على تعاملي البارد والمهذب معه، منتظرة رحيله.

لكن أي جرعة لطف زائدة مني كان يقتنصها فيسألني: ألم تشتاقي لي؟! فأرد مُجاملة: أجل.

فيتشجع ويقول: والله أنت مجرمة، قضيت على أحلى قصة حب بين أروع عاشقين. فأرد باقتضاب متحاشية أن ألتقي بنظراته التي تنز شهوة: الموضوع انتهى منذ سنوات، ولا داعي للتحدث به.

- لا، لم ينته، لماذا تقاومين رغباتك، لم يدخل رجل إلى حياتك، ثم أنت لا تزالين مغرمة بي.

أبحلق به بذهول، وأعجز عن الرد أمام صلفه وغروره الغبي، فيتشجع ويمد يده ليلامس نهدي، فانتفض وأصرخ: ما هذا؟ كيف تجرؤ؟!.

ينظر إلي مبتسماً كأنه يذكرني بأنّه طالما لمس جسدي.

هذا الرجل الذي أظنه نموذجاً لرجل شرقي، يعتقد أنه

يملك الحق علي لمجرد أني عشتُ معه ذات يوم علاقة.

رجوته ألا يزورني في مكتبي، وأن يعفيني من اتصالاته للاطمئنان علي لكنه فاجأني باتصاله ذات مساء، ومن صوته أحسستُ أنه مشتعل بالرغبة، قال لي بلا مقدمات: اسمعي أنا لا أزال أشتهيك كما لو أنك الأنثى الوحيدة على سطح الأرض، رغم أنك لا تستحقين ذلك !! . . . تصوري يا منال كان اشتهاؤه لي امتيازاً لي!! تابع كلامه: وبما أنك لا تزالين عازبة ولم ترتبطي بأحد، وأنا واثق بأنّك تحبينني، فلماذا لا نستأنف علاقتنا أقصد، لماذا لا نمارس الحب كلما سمحت لنا الظروف باللقاء.

احتميتُ بالسخرية كوسيلة سحرية لتلطيف الألم والغضب.

قلتُ له: لكن أنت تسكن في مدينة بعيدة، ولقا. . . .

لم يسمح لي أن أكمل كلامي: أسرع يكشف عن خطته، اسمعي سأستأجر بيتاً في مدينتك بمنطقة نائية، وسأزورك كلما سنحت لي الفرصة.

- بمعدل كم مرة في الشهر؟

- لنقل مرتين.

- لكن هذا لا يكفي. فأنا دمي مشتعل بالرغبة لك.

لم يميز أبداً لهجة التهكم في كلامي، لأنه مؤمن بأنّه ملك الجنس.

قال وهويتنهد: كنتُ واثقاً بأنّك تموتين حباً بي.

لا أعرف لماذا انفجرت بضحك عاصف لدرجة انطويت على نفسي من الضحك، أغاظه ضحكي الهستيري، فسألني:

لماذا تضحكين هكذا .

لم أستطع أن أرد لأني كنتُ مستسلمة لكريزة الضحك .

بعد شهر من هذا الاتصال انقضّ علي يوم عيد ميلادي تسبقه باقة ورد أحمر عملاقة ، وهدية : العطر الذي أفضلّه ، أطبق علي بهديته . رفضت قبول العطر فأصر ، فازددت رفضاً ، اعتذرت له بلباقة عن استقباله لأن لدي ارتباطات .

قال لي بثقة المالك : الغها كلها .

بحلقت به : بأي حق تطَلب مني إلغاء ارتباطاتي .

ابتسم ابتسامة مُلّغزة : ألا يحق لي هذا الطلب .

انفجرت بصراخ أحسسته يتفجر في شراييني وأعصابي وكل خلية في جسدي .

- يلعن أبو الساعة التي عملت معك علاقة ، يلعن أبو الزمان الذي عرفني بحيوان مثلك ، يلعن أبو تلك الصدفة التي جمعتني برجل قحبة مثلك . . . . ألم تفهم بعد كم أقرفك وأحتقرك ، أليس فيك ذرة إحساس يا حيوان . . . من أنتَ حتى تعتقد أنك ملكتني لمجرد أني قضيت معك علاقة ، طظ في هذه العلاقة . . . .

يبدو أن انفعالي كان رهيباً لأني لمحتُ الذعر في عينيه ، كنتُ مستعدة لأن أعمل فضيحة فقط ليخرج من مكتبي ، خرج أخيراً ، وما أن قدرت أنه صار في الشارع ، حتى رميت باقة الورد العملاقة من النافذة وأتبعتها بزجاجة العطر .

منال : آسفة للإطالة ، لكني أظن هذه الرسالة ستهمك ، وستدفعك لبحث الأسباب التي تجعل المرأة الشرقية تجني غالباً طعم الندم والمرارة بعد نهاية أية علاقة حب مع رجل

شرقي اعتاد أن يشعر أنه مالك للمرأة لمجرد حصوله على جسدها.

اعذريني على تلك الرسالة الخاصة، يمكنك نشرها محرفة قليلاً في بريد القراء.

المحبـة . . . . . .

١٠

رأس سنة مختلف

لقد اتخذت قرارها أخيراً، سيكون رأس السنة هذه المرة مختلفاً، لم يعد بمقدورها أن تعيش في التفاصيل نفسها كل رأس سنة، وبدقة عجيبة، المأكولات ذاتها، كل صحن وكل نوع في مكانه، الوجوه ذاتها، الحديث نفسه، افتعال السعادة، ورفع الكؤوس، في صحتك، في فرحتك، في نجاحك، ولحوامل الأسرة: بفرحة صبي. . . .

سنوات وسهرة رأس السنة تتكرر أبداً، تحسها تتكرر للمرة المليون، يبدأ التحضير قبل يومين، والجد الكسيح في التسعين يترأس المائدة، إنه البركة، يجلسه أخوتها في كرسيه الأبدي، أخوتها الأربعة وزوجاتهم، أختاها وزوجاهما، والأولاد، لكل فرد كرسيه ومكانه وعمتها العانس التي تجلس أبداً عن يمين والدها تصب له النبيذ كلما فرغ كأسه، وتقرب له صحون الطعام الخاص الذي أعد له بدون ملح، والجد كسيح ويعاني ارتفاع التوتر الشرياني ويحتمي عن الملح،

ويعيش سنة بعد سنة، وهي أرملة في الأربعين لم تنجب. زوجها كان عقيماً ويكبرها بسبعة عشر عاماً، لم تشعر يوماً بسعادة معه، كان من البشر الباهتين الذين لا يتركون بصمة، كان بلا ملامح، لم تفرح معه، ولم تتألم، كان يحدثها عن تفاصيل عمله، عن كل شاردة وواردة، إذا تقيأ أحد الموظفين كان يخبرها عن أسباب وجع معدته الذي أدى للتقيؤ، وإذا حول أحد زملائه للتحقيق كان يبحث أمامها عن الأسباب ويناقش معها كل احتمال ممكن، وهي تتأمله بعينين ساكنتين آسنتين.

كانت تختنق، لكنها أفلحت مع الزمن في إيجاد وسيلة للتهرب من ثرثرته، كانت تهرب بأحلامها بعيداً وتتخيل أنها تركض، أوأنها مع شاب في عمرها يتبادلان القبل أو تتخيل نفسها ترضع طفلاً مفرغة شوقها للأمومة، ومع الزمن طغى حلم الركض على كل الصور الأخرى، وتوفي زوجها وفاة سخيفة كحياته، إذ صدمته سيارة فسقط وكانت سقطته قاتلة بعد إصابته بنزيف دماغي.

لا تنكر أنها حزنت عليه حزناً فاتراً كعلاقتهما، ولكن بعد وفاته بأسابيع لاحظت أنهم يخططون حياتها: لا يجوز أن تعيشي في بيتك وحيدة، انتقلي إلى بيت أحد أخوتك، كانت حياتها تدخل في نطاق سطوتهم، وبعد طول نقاش قرروا أن الحل الأمثل هو أن تنتقل لتعيش مع جدها وعمتها العانس، ولم تمانع، كانت قد تشكلت، إن حياتها ليست ملكها، وأن عليها أن تقبل بنصائح أخوتها وتعمل بها، وإلا اعتبرها المجتمع ناشزة.

كرت السنوات مع الجد الكسيح والعمة العانس المحنطة، بسلاسة غريبة، ورغم الضجر القاتل والوقت الذي يمر ببطء مشي السلحفاة، ورغم نوب الاختناق التي كانت توقظها من عز نومها وتجعلها تخرج إلى الشرفة باحثة عن هواء منعش لا يحمل رائحة الرتابة، فإنها بعد ساعتين أواكثر من الانفعالات والتمزقات الداخلية كانت تتعب وتستسلم للنوم بمساعدة المنومات والمهدئات.

كانت تتعجب كيف تحس بتسارع الزمن ليلة راس السنة، كانت حالة أقرب إلى الهلع تنتابها وهي ترى كيف صارت الأحداث خلفها، كانت تشعر بأنّها بدون جنس، بدون هوية، كأن المرأة في الأربعين تتحول لهيولى فاقدة التمييز، لا لون لها، ولا جنس....

ثماني سنوات عاشت وسط جدها وعمتها، وهي تعرف سلفاً وعن ظهر قلب تفصيل كل يوم، تعرف متى سيتجشأ جدها، ومتى سيشرب دواء الضغط، ودواء تسكين آلام مناقيره الظهرية، تعرف في أية لحظة ستتنهد عمتها بعد أن تنتهي من عقص شعرها وتمسيد جبينها ووجنتيها بحركة أبدية تقوم بها كل يوم.

سنوات مرت وهي تعرف تفاصيل كل لحظة من لحظات حياتها، لكنها أكثر ما تتألم ليلة رأس السنة، تحس بالسخط والحقد، تتكشف لها أنانية أخوتها، لا يهمهم سوى سعادتهم، لم يسألها أحد منهم عن مشاعرها بعد وفاة زوجها، صنفوها أرملة، وقرروا أن تعيش وسط جدها وعمتها نقطة وانتهى الموضوع، وانتهت هي. أماتوها في ذهنهم وجمدوها في لقطة

أبدية الأرملة بين الجد والعمة.

لا، لا، صرخت محتدة وهي تؤكد قرارها: لن أكون معهم في سهرة السنة هذه التي تنتهي دوماً بالتنظيف، تجلوتلة من الصحون المتسخة بأنانيتهم، وتمسح المطبخ وترتب الصالون حتى فجر السنة الجديدة، يالها من نهاية عام، وبداية عام جديد، ابتسمت بسخرية، كل رأس سنة يعني لها حفلة جلوأطباق لا نهاية لها، ستقول لهم هذه السنة أنها قررت أن تقضي سهرة رأس السنة عند صديقتها في حلب التي توفي زوجها منذ أشهر، حجة مقنعة إنسانية، فهم يعرفون صديقتها التي تربطهم بها قرابة بعيدة. وفجأة أخذ قلبها يطرق بعنف مذكراً إياها أنه موجود رغم تحنيط السنوات، وافتكرت أنها لن تكون عند صديقتها بل معه، ستتصل به وستفاجؤه، إنه الوحيد الذي اهتم لشخصها ودس رقم هاتفه في يدها وقال هامساً: إذا سافرت إلى حلب، اتصلي بي. عرفته منذ سنتين - موظفاً عازباً يصغرها بسنوات، استأجر الشقة الصغيرة التي تملكها عمتها. كان نعم الجار، مهذباً، رقيقاً، لم تكن تعيره اهتماماً لأنه يصغرها، ولأن شلة من الشابات والشبان يترددون عليه دوماً، كانت تحس أنها بلا جنس بلا هوية وهي أرملة في الأربعين تتنفس خريف عمتها وشتاء جدها، وهوكان في أوج الربيع.

لكنه يوم غادرهم، ودس تلك القصاصة الصغيرة في يدها، أيقظ في أعماقها مشاعر غريبة، زخماً من كل الألوان، شوقاً، لهفة، حباً، شهوة، رغبة بالمغامرة.

لماذا خصها برقم هاتفه لولم تكن تعني له شيئاً؟! لكان

أعطى الرقم للعائلة كلها للعمة والجد. . ولكن، بدا لها صادقاً يوم طلب إليها أن تتصل به إذا سافرت إلى حلب.

ندمت لأنّها لم تتقرب منه خلال إقامته إلى جوارهم، افتقدته كحبيب تربطها به علاقة قديمة، وأخذت تستعيد في صفحة أيامها الآسنة تصرفاته ونغمة صوته وحركاته.

قوبل قرار سفرها إلى حلب بعدم الترحيب، لكنها أصرت أن تكون إلى جانب صديقتها المنكوبة لكي تؤاسيها بعد وفاة زوجها.

قالت عمتها عاتبة: أهكذا تتركيننا في ليلة كهذه؟

ردت بتهكم مبطن: لن يتغير عليكم شيء، فقط ستضطررن لتقاسم جلوالصحون.

قالت عمتها باستنكار: أهذا كل ما ترينه؟!

قالت بسخرية: هل هناك أشياء أخرى!

سافرت إليه، أدهشتها روح المغامرة المفاجئة التي طفرت في روحها بعد سبات سنوات، طوال حياتها لم تكن مغامرة، حتى وهي طفلة كانت مطيعة للغاية، فما بالها الآن تطوح بحصانة سنوات من الطاعة العمياء، وكيف يخطر لبحيرة راكدة أن تتمرد على قدرها وتريد أن تصير شلالاً يهدر؟! كانت تغمض عينيها وتقول: آه، سألقاه، سنسهر معاً حتى الفجر، سيكون لحديثنا نغمة الشعر، ولنظراتنا دفء أشعة الشمس، يا الهي كم أحتاج أن أحيا ساعات لا أعرف ما تبطنه دقائقها من أحداث.

عادت تشعر بأنّها أنثى بعد أن نسيت لسنوات جنسها، ولكن لن تقول له أنها قدمت خصوصاً لتراه، وإلا سيقول إنها

خفيفة ورخيصة، ستقول له إنها في حلب منذ أيام، وإنها افتكرت في هاتفه وأرادت أن تتصل به لتطمئن عليه، سيدعوها بالتأكيد لقضاء السهرة معه، وستلبي.

عند هذا الحد كان تفكيرها يرتاح مستسلماً لسعادة تنتظره ويشم عطرها، أسعدها أنها تخطط وتغامر وتنفذ وتسافر، امرأة تستيقظ من سباتها. وصلت إلى حلب الساعة الخامسة بعد الظهر، كان البرد يخترق معطفها السميك ويجمد عظامها، أحست أنها مشردة مع حقيبة يدها الصغيرة، دخلت مقهى وطلبت أن تستعمل الهاتف. ارتجفت يدها وهي تدير القرص، وسمعت الرنين، لم يكن في منزله. أحست أنها تهوي في بئر عميق مظلم، يا إلهي كم أنا بلهاء، قالت لنفسها وهي تتساءل ماذا لو كان مسافراً!! أي جنون هذا، أما كان علي أن أتصل به قبل أن أسافر؟! وكيف فاتتني هذه البديهية، لكنها سمعت صوتاً يصرخ في أعماقها: لا لن تكون ليلة رأس السنة هذه ككل سنة.

جلست على كرسي وحيد وطلبت شاياً، واضطرت أن تطلب وجبة طعام كي تتمكن من المكوث أطول مدة ممكنة، تتساءل هل تتصل بصديقتها أم لا؟! ناقشت الفكرة على مهل، فأمامها وقت طويل، فلتقتل الانتظار بالتفكير، وجدت أنه من الأفضل ألا تتصل بها، لأن الأخيرة ستلح عليها لزيارتها وستسألها الكثير من الأسئلة، وحبل الكذب قصير كما تعلمت. عادت لتتصل به السادسة والنصف مساء، فلم يجب، كادت تبكي، نظرت إلى حقيبتها بأسى عميق عمره سنوات، وشكت همها إلى حقيبتها، رفيقتها الوحيدة في رحلة يأسها

البائسة. أحست بشفقة غامرةٍ على نفسها وافتكرت كيف استحمت بنشاط هذا الصباح وهي تغني بصوت خافت، خوفاً من أن تسمعها عمتها وتستغرب بهجتها في بيت تعتبر فيه بهجة أرملة عاراً، استرجعت ذكريات يومها، كيف قصدت مزين الشعر، وكيف وضعت بإتقان طلاء الأظافر، وكيف تعطرت بكثافة لم تعرفها وهي في ليلة زفافها، أيعقل أنها سافرت وغامرت لتراه، لتحيا رأس سنة مختلفاً. ولكن لم يخطر ببالها أن تتصل به قبلاً؟!

هاجمتها دموعها لكنها زجرتها لأنها لا تريد للكحل المتقن أن يذوب الآن، وهناك أمل في أن تلقاه، فلتنتظر أيضاً، أخذت تبث الأمل في نفسها، حدثت نفسها برقة لم تعرفها من قبل: لا تبتئسي يا عزيزتي، أحس أنك سترينه، انتظري أيضاً. اشترت مجلة وأخذت تتسلى بالتفرج على الصور، لم تستطع أن تستوعب شيئاً، قرأت عنواناً كبيراً، الضجر والتخلص منه، قرأت عدة سطور فأصابها ضجر قاتل، ضحكت كيف تضجر من مقال يعالج الضجر فتشت عن صفحة الأبراج وقرأت برجها الميزان: مغامرة مخيبة للآمال، غضبت وودت لو تمزق المجلة، كيف يعرفون؟! لكنها عادت لتهدأ نفسها عجباً متى كانت تؤمن بالأبراج، تساءلت من أي برج هو... وبدا لها غريباً وسراباً وأحست أنها طفلة مشردة في صقيع آخر ليلة في السنة....

حين عاودت الاتصال الساعة الثامنة أتاها صوته بعد ثلاث رنات، جاعلاً قلبها يقفز من مكانه كقط مذعور.

سأل: من يتكلم؟

قالت مدارية شعور بالإحباط: ألم تعرفني؟

قال: لا.

انكمشت لكنها أسرعت تجيب كي لا تجرها حالة الانكماش وتبتلعها كالرمال المتحركة: أنا جارتك ردينة...

أتاها صوته مرحباً بانفعال واضح: أهلاً أهلاً.

وسأل عن صحة جدها وعمتها.... انتعشت وعادت إليها بسمتها، وأخذت تمشط شعرها بأصابع يدها الحرة، أخبرته بأنّها في حلب منذ أسبوع، وأنها أرادت أن تعايده في ليلة رأس السنة و... سكتت.

حل صمت لدقيقة بدت دهراً، كانت تنتظر أن يدعوها، وتتساءل ألا يجب أن يدعوني لنسهر معاً.

سألته: أين ستسهر اليوم؟

قال: مع شلة من أصدقائي في ملهى مقهى أمير.

أحست بألم وهي تسمع كلمة ملهى، عالم لا تعرفه ولا تود أن تعرفه... سألها: وأنت.

قالت: سأسهر مع صديقتي...

قال: ما رأيك لوترافقينني، أنا أدعوك.

قاطعته وهي تتخيل الفتيات الصغيرات النضرات اللواتي كن يزرنه: قالت: لا ولكن...

قال: لماذا، تعالي معي.

قالت وقد جمعت كل تهورها وقالت: يمكنني أن أراك بعد انتهاء السهرة، فأنا سأسافر صباح رأس السنة.

قال: ولكن السهرة ستنتهي عند الفجر.

قالت ضاحكة وهي تحس أنها ماجنة: ليكن.

قال ضاحكاً: حسناً، سأتصل بك حال انتهاء الحفلة.

خفق قلبها وأسرع عقلها ينجدها: لا، لا داعي لإزعاج صديقتي برنين الهاتف سأعطيك العنوان، وستمر لا صطحابي بعد نهاية السهرة.

قال: أوكي.

أعطته العنوان، قالت في ذاتها سأتسكع الليل بطوله، ثم انتظره على الدرج وسأتظاهر أني رأيت سيارته من النافذة، وعند الفجر سأذهب معه... تساءلت لماذا رفضت دعوته، وأطرقت وقد أتاها الجواب بشكل صور، صور الفتيات النضرات، وصورتها هي باهتة قافزة فوق الأربعين بسنوات، امرأة لا جنس لها!!

تساءلت بعد أن أغلقت السماعة: يا إلهي أين كان يختبئ هذا الجنون المدهش؟ حدثت نفسها لا بأس سيمضي الوقت سريعاً، اتجهت إلى سينما قريبة، واشترت بطاقة لحفلة الساعة التاسعة، قالت ستحاول أن تسترخي وتنام في السينما كي تحتفظ قدر الإمكان بما تملكه من نضارة اصطناعية، لكن ضجيج الفيلم منعها من النوم ومن الاسترخاء حتى خرجت من السينما بعد منصف الليل تتأبط حقيبة سفرها الكئيبة متقوسة من البرد والخوف إلى أين؟! وهي تحمل حقيبة مغامرتها وحيدة في مدينة غريبة، انتابها خوف شديد تركز عند كتفيها ونقرتها كأن لصاً سينقض عليها من الخلف، أشارت إلى تكسي وانطلقت إلى بيت صديقتها، وقفت عند الباب، تمنت لوتقدر أن تقرع الباب، وتحتضن صديقتها وتشرب كأس شاي، وتجلس قرب المدفأة، تمنت

أن تبكي في حضن صديقتها، ولكن كيف ستقرع بابها بعد منتصف الليل؟!.

جلست على الدرج مهدودة القوى، مثقلة من شعورها بغرابة تصرفاتها، لكنها متعبة وكل ما تحلم به فراش دافئ أوماء فاتر يغمر جسدها، ثم نوم، نوم عميق، آه النوم سلطان، تكورت فوق الدرج مسندة ذقنها لركبتها، وفي الظلام كانت وجوههم تلوح باهتة بلا شعور، بلا لون، افتكرت في سهرتهم بتفاصيلها المملة، أمكنها أن تسمع أصواتهم وتحس بصوت مضغهم للطعام الأبدي الخاص بليلة رأس السنة، آه فرت منهم أخيراً لسنة واحدة، ولكن لتجلس على درج معتم في مدينة غريبة، سمعت وقع خطوات، قامت مرتجفة، حملت حقيبة مغامراتها وتظاهرت بأنّها تصعد الدرج لكن صوت الخطوات توقف، وسمعت انصفاق الباب، غار قلبها إذ شعرت بصوت الانصفاق الحاد إنها مطرودة من الحياة. كانت عاصفة عاتية تهب في الخارج تزمجر وتتوعد. عادت لتجلس على الدرج، أخرجت مرآتها الصغيرة، نظرت إلى نفسها، كانت ذاوية ونضارتها الاصطناعية بحاجة لاعادة تلوين أسندت رأسها إلى ركبتيها وغرقت في غيمة سوداء. كانت صور أحلام تتراقص تحت أجفانها، إنها تركض وتركض وتركض، ومن بعيد صورة عمتها وجدها وأخوتها وأولادهم، صور، صور تركض أمامها، خلفها، في كل مكان، تشكل حولها سوراً، الصور تلتصق على السور يجب أن تحبهم، تحبهم ولكن، لكن ماذا... لماذا تستيقظ من عز نومها على شعور الاختناق؟! حين رفعت رأسها كانت الساعة تقترب من الرابعة صباحاً، يا

الهي هل أغفت، تساءلت وهي تقوم تتمطى وجسدها يؤلمها بقسوة، خفق قلبها، سيأتي بعد قليل، أخرجت قلم أحمر الشفاه، وعلبة الظل، وباشرت رسم نضارتها الاصطناعية. . . وعادت تكثف عطرها على رقبتها وشعرها. نزلت الدرج لتقف خلف باب الحديد، أخذت تضحك، بدت لها الحياة مضحكة لدرجة تسيل لها الدموع، تخيلت نفسها أرملة محنطة، لا جنس لها ولا لون، ترغب في أن تضفي حركة في مستنقع حياتها الآسن، فتسافر مغامرة لتلتقي رجلاً شبه مجهول، وتقضي ليلتها على الدرج وخلف باب حديد، كانت نوبة الضحك تهزها وتجعل الدموع تترقرق رغما عنها مذيبة الكحل الذي جهدت في رسمه، خافت أن يستمر ضحكها حتى بعد مجيئه، يا الهي ماذا دهاني؟ حاولت أن تستحضر صور اختناقها الليلي وصور جدها المملة ولكن ضحكها كان يتزايد ليتحول لكهرباء تخض جسدها كله، توقف ضحكها بصوت سيارة، مدت رأسها لتراه، خفق قلبها بعنف، مسحت دموعها السوداء، وتأهبت لتخرج إليه، ما عادت تحس بالبرد والتعب والإرهاق، نسيت نفسها، صارت لحظة انتظار كثيفة، لم تعد تعرف ماضيها وحاضرها، وماذا ينتظرها، عليها أن تواجهه الآن، الحياة مواجهة كثيفة، هذا ما تحسه، خرجت إليه متأبطة حقيبة مغامراتها، فاجأتها رائحة الكحول الكثيفة المنبعثة منه، أحست بخيبة وألم، كأنها متواعدة مع سكران لا يعي شيئاً حوله.

تصافحا بحرارة مفتعلة، قالت له: رأيتك من النافذة ونزلت. . . .

أشار إلى سيارته، وقال هيا. . . .

مر بذهنها طيف جدها وعمتها يغطان في النوم، حسدتهما، ورق قلبها، أحست أنها تحبهما بعمق ولم تكرههما يوماً، لكن المشكلة أنها مختنقة بقبضة خفية، وهي تفرغ سخطها بشخصهما، تمنت لو تكون الآن بينهما يرشفان قهوة الصباح، يا الهي ما أجمل تلك اللحظات؟ قالت ذلك لنفسها وهي تعي في الوقت نفسه كيف أن هذه اللحظة بالذات في يومها كانت الأكثر ضجراً، بل تحسها محنة حقيقية إذ تقول، ها قد بدأ يومي بينهما - إنهما الأبد. . . .

أوقف السيارة، وترجلا، كان الفجر يلوح رمادياً كثيفاً، تبعته وهي لا تزال تتابع جلسة قهوة الصباح بين جدها وعمتها، قال لها تفضلي قاطعاً تصوراتها، تأملت شقته المكركبة، ابتسمت له قائلة: شقة عازب.

جلس إلى جوارها، تقلصت معدتها من رائحة الكحول، قالت له: يبدو أنك شربت كثيراً؟!

قال: أجل، في ليلة رأس السنة لا يوجد حدود.

امتدت يده تداعب وجهها، انتفضت قالت له: يبدو أن الكحول أثّرت فيك.

نظر إليها مستطلعاً هل ثورتها دلال أم حقيقة، لكنها كانت تحدث نفسها ترى لماذا سافرت إليه؟!

كان الجواب فجوة كبيرة تبتلعها، وجدت نفسها تجيب:

- لا يمكن للإنسان أن يعيش بلا حدود.

قال ضاحكاً: ولم لا، في ليلة رأس السنة على الأقل.

وجدت نفسها تعذره، فها هي في بيته عند الفجر، وهو يعود

ثملاً، فماذا تنتظر؟! آه حقاً ماذا تنتظرين... تساءلت وهي تهرب من الجواب.

سألها إذا كانت ترغب بفنجان قهوة، قالت: أجل.

وحين اتجه إلى المطبخ ليحضر القهوة تعثرت خطاه قليلاً، فاعتذر، قامت لتنجده، طلبت إليه أن يستريح على الأريكة وستحضر هي القهوة.... اتجهت إلى المطبخ، أعدت القهوة، أذهلها مطبخه في فوضاه وقذارته، حين عادت حاملة صينية القهوة رأته يغط في نوم عميق وقد فغر فاه، كان يبدو كميت، جلست، تتأمله وترتشف قهوتها، أخذ الفجر الرمادي يزحف من الشقوق لينير الغرفة ويضيء أعماقها المظلمة، كان لقهوتها طعم خاص، طعم مميز لم تشعر به من قبل، كانت تحس بطعم الحقيقة وتتأمله شاباً غريباً، سراباً أرادت أن تتعلق به لتشعر ربما بجنسها، بهويتها، بأنوثتها، ولكن إلى هذا الحد يبلغ الضلال، هل تسافر وتهرب إلى شاب، كل ما فعله أن دس قصاصة ورق مكتوب عليها رقم هاتفه في يدها، منذ أشهر... انسكبت دمعة كاوية في فنجان قهوتها، قامت على رؤوس أصابعها محاذرة أن توقظه، ودت لو تغطيه، لكنها خافت أن يستيقظ، فتحت الباب بخفة وانسلت خارجة. كان الفجر صريحاً هذه المرة، يلقي ظلاله الزرقاء على مدينة غافية ستستيقظ بعد لحظات على عام جديد، لن تعرف كيف سيكون، انتظرت لحظات سيارة أجرة، انطلقت إلى محطة الكرنك، قطعت تذكرة الساعة السادسة والنصف، وحين جلست في المقعد الوثير، أغمضت عينيها للحال من الإعياء وانفجر صداع قاس في رأسها، آه تمنت لو تصل بغمضة عين

إلى البيت، إلى فراشها إلى اختناق وحدتها، سيكون أمامها وقت طويل لتفكر في سفرتها الجنونية، أغمضت عينيها وهي تقول مبتسمة فيما الصداع يفتت دروز جمجمتها: ليلة رأس سنة مختلفة.

١١

غروب وكتابة

يغويني فن الكلام، أعرف أن كل ما أقوم به له غاية أساسية هي تمويه إحساسي أنه ليس لي دور في الحياة، فأيامي تتعاقب كرّقاص الساعة، لا تسجّل ماضياً ولا تحلم بمستقبل. . أشعر برغبة في البكاء دون سبب واضح. أكثر ما يثير فيَّ البكاء الصمت.

اختبئ في رصانتي وأواجه الناس، لا يمكنهم تخيّل اضطراب قلبي، جموحه وجنونه، أجبرُ نفسي على رياضة المشي وغالباً ما أمشي وسط نوبة من الألم والوحشة، وحقائق معينة تتبدى لي بوضوح عار، الليل هوقلب الغموض، أخافه بقدر ما انتظره، لكن الليل يُقدّم لي الأسى اللطيف. يحولني لامرأة مغلّفة بوشاح شفاف، عنوان حياتي الانتظار، هناك شيء أجهله أشعر أن بوسعي انتظاره إلى الأبد حتى علاقتي مع الناس حولي انتظار، انتظر مكالمات الأصدقاء والأخوة، انتظر وصول رسائلي لهم، أنتظر قدومهم ورحيلهم، انتظر بصمات

الزمن على وجهي، انتظر ابنتي، انتظر استيقاظها بشغف وبالشغف ذاته انتظر نجاحها، ثم يوماً سأفرح بزواجها، أفكر في أن هوى الانتظار الأكبر هوانتظار الموت، المحطة الأخيرة الفاتنة والتي تجعلني أتحجّر من الرعب.

ثمة إحساس مستمر بالفاجعة أعجز عن مداراته، لا أملك سوى مراقبة حياة الناس، إنهم أحياء، لكن ليس فيهم مسّ من عبقرية، ينتابني غثيان من محدوديتهم، أقاوم مشاعر التكبر، لكن كلما أمعنتُ التفكير في حياتهم الباهتة، أحس بدهشة، أفهم الحياة إبداعاً، أتراهم بحاجة إلى أن يسجنوا أنفسهم ضمن أقفاص ويكون تحليقهم قصيراً؟.. التفاهة تحمي من الألم، وأنا ماذا أفعل كم مرة ارتعبت من الطاقات الهائلة الكامنة في جسدي الضئيل، يخّيل إلي أحياناً أنني قادرة على أن أفجّر العالم بالكلمات، حياتي تشبه الابتهال، فأنا دوماً بحالة لهفة، بحالة استجداء لحدوث أمور غير عادية، أتوق لأشياء لا أعرف عنها شيئاً وأكثر ما تغويني ورقة بيضاء، كل شيء يصبح فاتناً فوق الورقة البيضاء، حتى الخيانة... لدي هوس بمراقبة حياة الناس الذين يذوون ضحايا أفكار تافهة، أعرف فتاة عاشقة ضيعت أجمل سنوات شبابها في حب يائس لأنها لا تجرؤ أن تتزوج بحبيبها الذي لا يرضاه والدها! والدها تافه، شبه مجنون!

حين يغمرني إحساس بالعبث المطبق، أتيه في الشوارع الفوضوية لمدينتي، هنا لدي وقت لا نهائي للتلصص على الحياة، أفكر وأنا أتسكع كم أن الحياة ممكنة ولطيفة بلا حب ولا أصدقاء، فطعم الوحدة ليس رديئاً كما يصورونه لنا، لا

توجد غواية أكبر من التسكع في الشوارع، اترك للدموع النقية حرية التعبير عن مشاعري، أشعر كيف تذوب سموم روحي في الدموع، أفكر باللغز العجيب الذي أبحث عنه: شيء ينعش القلب والروح والجسد... ترى ما هو، أسخر من نفسي حين أجدني بعد بحث مستميت أشرب كأس عصير طازج، قد يكون العصير هو اللغز المحيّر الذي يعذّبني!؟

خوفٌ لا اسم له يتبعني كظلي، ابتسم للموت ابتسامة متصدعة واهنة أرجوه ألا يقترب، كما رجوت الحبيب الأول احترام عذريتي، عنوان شخصيتي!.. وأنا تائهة في فتنة الشوارع، أنسى أن هناك تناقضاً كبيراً بين أفكاري وحياتي، يحوّلني المشي السريع إلى طاقة إلى كتلة منطلقة على صوت موسيقى صاخبة أحتاجها في مسيري.

هذه المدينة مرآة ضجري ووحدتي، أحبها وأكرهها، علاقتي بها ملتبسة، كأم لديها طفل مُعاق، قربه عذاب، وبعده عذاب، تتعذب من إعاقته لكن نفسها لا تطاوعها لتضعه في مَصَح. تطاردني أشواق جامحة لحياة كريمة، أقول فيها ما أريد دون خوف، مستعدة أن أخسر كل شيء من أجل لحظة حنين مخادع...

ما أبشع عمر الحكمة، حيث توجد الحكمة يغيب الفرح، أحتاج لمن يخدعني، أحتاج أن أخدع نفسي، لكني صرت كالأسماك أنام وعيناي مفتّحتان.

ما من شيء يؤثر بيّ، فأنا لا أطلب سوى سحر الكلمة، أعيش تحت رحمة أهواء الكتابة، تلك العبودية الجميلة، لكن المطهرّة من التفاهة.

صرتُ أفهم سرّ الغروب، لماذا يسحرني غروب الشمس منذ طفولتي؟؟!! أليست الكتابة ساعة غروب الحياة؟ ساعة الفتنة التي تتوهج فيها الحياة قبل أن يحلّ الموت.

منذ طفولتي أراقب بقلب مرتعش كيف يشعل فيّ الغروب شغفاً غامضاً، وفي كل المرّات التي كتبتُ فيها قصصي في مقهى بحري، كانت النهايات تنتهي مع الأشعة البنفسجية الأخيرة لشمس غاربة.

الغروب لا يشبه الكتابة فقط، بل يشبه الحب، فالحب الحقيقي يتألق في أفوله وقد فارقه الغرور الغبي للشباب، وفظاظة الغريزة، ولم يبقَ سوى رحيق حب معتق لحبيب أخير، الحب العميق الذي عرفته كان في أفوله الغروب البهي الذي يسحرك وأنت ترى فراغ العتمة السحيق وراءه، ترى الخواء والفراغ والبرودة وراء ألوان الغروب الساحرة لحب أخير... عندئذ لا أملك سوى احتضان المشهد بكل طاقة روحي، ولا أسمّح لعينيّ بذرف الدموع كي لا أشوش اللّقطة الأخيرة، عندها يكون التحديق إلى المشهد الأخير أقسى من ذرف الدموع.

إنه نعيم الألم، وتوهجّ حب أخير يتجاسر ويتحدى الموت.

١٢

إلى روح أحمد

ما سأحكيه قديم، لكن أحمد يبعث أمامي كل يوم فأنا أرى وجهه الشاحب النحيل في وجوه كثيرة، صعب أن أكتب عن أحمد دون أن أبذل جهداً كبيراً لأتمالك نفسي، لأحزم انفعالاتي وأربطها جيداً كي لا تنفلت في كل اتجاه لاحقة أحمد في ضياعه.

منذ تلك اللحظة ضاع أحمد، لحظة توفي أخوه فريد الذي يكبره بسنتين، لم أكن أعرف فريد، لكن كل من يعرفه يشهد أنه عبقري، لكن حين رأيت صوره هالني الشبه بين أحمد وفريد لدرجة لم أعرف أحدهما من الآخر، لهما القامة ذاتها والسمرة الجذابة نفسها، العينان الواسعتان السوداوان والابتسامة الساخرة نفسها ربما النظرة تختلف بينهما فنظرة فريد فيها ثقة وقوة، أما نظرة أحمد فحائرة، نظرة من يفتش عن شيء عارفاً أنه لن يجده.

مات فريد في العشرين بسبب خطأ طبي، ميتة تافهة، فقد

دخل المستشفى لتجرى له عملية بواسير، المستشفى الوطني البائس لا يهتم بتعقيم الأدوات الجراحية ربما من فرط إيمان العاملين به بالعناية الإلهية، لا يعقمون الأدوات! تجرثم دم فريد بعد العملية ولم يتمكن الأطباء من إنقاذه فمات بعد ثلاثة أيام من العمل الجراحي.

استنفرت المدينة في جنازة فريد، كان مشروع عبقرية في الرسم والموسيقى والمسرح، بقي من فريد عشرات اللوحات الزيتية التي بهرت أعظم الرسامين وبعض المقطوعات الموسيقية ومشروع مسرحية كتبها ولحنّ أغانيها...

في الجنازة - التي لم أحضرها - وصف لي أحد الأصدقاء أحمد، قال: كان يمشي مترنحاً يرتطم بالناس دون وعي منه، أحمد كان صورة فريد، لكنه لم يملك روحه المبدعة، أحمد كان الغبار الذي يثيره فريد حين يمشي.

أراد أحمد أن يصير فريداً، أن تتقمصه روح الغائب - صار يلبس ثيابه ويدخن غليونه، ينام في سريره ويتأمل لوحاته طويلاً، يستمع إلى موسيقاه لكنه يعجز عن خلق شيء... أحمد كان مبهوراً بأخيه الذي قضى عمره القصير بقوة موهبته وحدها، أحمد يبحث في أعماقه المعتمة عن بذرة موهبة، فلا يرى سوى ضباب وألم.

أحمد عنوان عصرنا، روح الشباب المعذّب بالوحشة والتخلي، ورغم المرات القليلة التي التقيته فيها فإنه كان يأسرني بتعبير الألم والضياع في عينيه.

أحمد لا يعرف من يكون! إنه يحاول التعرف على صفاته، يحاول بلورة شخصيته يتعمّد أن يدخل في حديثه بعض الأقوال

الذكية المهمة التي يحفظها، تهمه الصرعات الفكرية يحفظ أسماء الكتّاب والكتب التي أثارت ضجة، يحفظ عناوين الكتب التي منعتها الرقابة ويستميت للحصول عليها، لا يقرؤها، بل يتباهى بأنّه يملكها محاولاً بتلك الممارسات أن يعطي هوية لشخصيته الضبابية يبحث عن الأشخاص المشهورين، ينحشر في جلساتهم، ويتباهى طويلاً بأنّه جلس بجوارهم.

كان أحمد بطيء الكلام، وفي صوته ارتعاش خاص، في وجهه الأسمر النحيل رهافة، نوع من قلق يشع من كيانه كله، نحوله جعله أقرب للأشباح، أحسه حين يدخل مكتبي كأنه يطفو في الفراغ، كأن قدميه لا تلامسان الأرض، أرحّب به فيجلس متفرساً في وجهي باحثاً عن تقييمي له.

يتألم أحمد حين يقرأ في عيون الناس استخفافهم به، يعرف أنهم يعتبرونه فاشلاً، حين يقارنونه بأخيه، ولأنه ترك الجامعة منذ سنته الأولى وفتح دكان حلاقة للرجال، كانت دكانه مقابل مكتبتي وكم من المرات كنت أتلصص على أحمد يقف عند النافذة سارحاً في اللاشيء ينفث الدخان بشراهة مشعلاً سيجارة من عقب أخرى.

أحاول أن أوصل لأحمد رأيي بأني أحترمه وأسعد بلقائه، يسعده ذلك لكن الشك يعاوده، يعتقد أني أشفق عليه. . . . أعاتبه على إدمانه الكحول أعنفّه: أحمد، تسبقك رائحة الكحول في أي وقت. . . لماذا هذا الاستهتار بصحتك؟!!

يضحك كاشفاً عن أسنان مصفرة من التدخين، يتنفس بمشقة وهو يرطن بكلمات لا أفهمها ولا يهمه أن أفهمه. . .

يتكلم أحمد كأنه يهذي وجهه يعبّر عن خفايا روحه المعذبة، ينتقل فجأة من أقصى درجات الهزل إلى الجد وفي لهجته حماس يائس، صدغاه يتقلصان دوماً وهويتكلم، كأنه يلجم دمه الغاضب.

ما يبقى في نفس أحمد من مشاعر أكثر بكثير مما يعبّر عنه... أحمد يعاني إعاقة روحية وذهنية يسحقه حلمه بالتفوق، حلم القوة، قوة الموهبة التي كان يمتلكها فريد... أيموت العبقري ويبقى التافه! أحمد يؤمن بأنّه كان يجب أن يموت ويبقى فريد، فهوفي أعماقه يشعر بأنّه لا شيء وبأنه ظلّ لأخيه، أحياناً يتجرأ أحمد ويعبّر عن اضطرابه أمامي، أشجعه، يبدأ الكلام، لكن حديثه ينقطع فجأة، يحرك يديه حركات تدل على قلق محموم، ليس لديه أية رغبة بتوضيح أفكاره، لأن لا أفكار خاصة به.

تنتابه رغبة في أن يظهر بمظهر المستقل عن الناس، لكنه يعرف أنه ظل للآخرين، يعيش أحمد حياته مُستزلماً لأشخاص كريهين من شدة افتتانهم بأنفسهم، أحمد بالنسبة لهم الجمهور الذي يستمع إليهم بصبر لا محدود، ويصفق لهم، موحياً لهم أنه معجب بأفكارهم، بينما هوفي الحقيقة يحتقرهم وينفر من صلف روحهم لكنه لا يملك الجرأة ليبتعد... إلى أين سيذهب، إنه تائه في هذا الكون المعقّد.

كل حلم من أحلامه ينصرف إلى فريد، لا يستطيع أحمد تحمّل أحاسيسه، إن لم يغرق في سبات الكحول، إنه ينشد طمأنينة زائفة وراحة أقرب إلى الموت.

ذات عصر دخل مكتبي متعتعاً من السُكر، ترنّح قبل أن

يجلس على الكرسي، قال لي وعيناه تطفحان بالدمع: أشتهي أن أقبّل الأرض التي مشى عليها.

أحمد أسير ذكرياته الهذيانية عن فريد، فريد الذي له شكله تماماً وبتطابق نادر لكنه للأسف لا يملك روحه، خبط بيده على صدره وقال: أفٍّ الضجر يرهق قلبي.

استغربت من تعبير (الضجر)! لكن متى كان أحمد يجيد التعبير! فجأة تكشفت لي الحقيقة التي تعذب أحمد، شفّ جسده النحيل عن تلك الحقيقة لدرجة لم يترك لي مجالاً للالتباس، أحمد يشعر كل لحظة بأنّ كرامته جريحة، ماذا فعل أحمد بعد وفاة أخيه؟؟... استجاب لنصيحة المقربين بأن يرفع شكوى ضد المستشفى، لأن أخاه مات بسبب تلوث الأدوات الجراحية.

حصل أحمد بعد سنتين على مبلغ تافه من المال كتعويض عن وفاة أخيه، أحس أحمد أنه قبض ثمن دم أخيه، أنه باعه، يتعذب أحمد بسبب نبل نفسه يجد نفسه هشاً ومُهمشاً ولا يملك أدوات ليخلق صفاته، يرى من حوله لصوصاً ومنافقين يحتلون مناصب حساسة، يضطر للتصفيق لهم واحترامهم.

تُرى من هو؟ من يبالي بحلاق فقير وسكير؟ الناس يعاملونه باستخفاف رغم أنه يصغي إليهم إصغاء كله حب وحنان ويخدمهم بحماسة صادقة.

تنتاب أحمد نوبٌ من المزاج القاتم فينسحب من المجتمع مختبئاً في قوقعة وحدته ويحب من وقت لآخر أن يجمع الأصدقاء في بيته، يصرف كل دخله من دكان الحلاقة لتقديم مشروبات ومازوات للأصدقاء وحين يزورهم يقدمون له فتات

صحونهم المتسخة بأنانيتهم.

لا ينسى أحمد أبداً عيد ميلاد كل واحد من معارفه، ولكل واحد يقدم الهدية التي تسعده ولا أحد منهم يتذكر عيد ميلاده، وإذ صدف أن تذكر أحدهم عيد ميلاده فيكون مخطئاً في التاريخ، قبل أيام أوبعد أيام... يشعر أحمد بأنّه من ضباب.. يحاول أن يرسم مثل أخيه لكنه يعجز عن خلق شيء، كان فريد يرسم عدة رسوم توضيحية قبل أن يخلق لوحته كاملة، كل محاولات أحمد للرسم كانت ذاتها، يرسم نقطة سوداء في صفحة بيضاء... إنه نقطة تائهة في الكون، تعذّبه تفاهة روحه، حلم الموهبة يستولي عليه، يشعر بأنّه عاجز عن أن يكون حتى إنساناً عادياً....

يمر أحمد بفترات غريبة، يجهل هوذاته لمَ يمّر بها، يختلق كذبات غريبة وتراوده أفكار جنونية، يخَتلق قصصاً عن علاقات غرامية مع فتيات وعن لوحات رسمها فنالت إعجاب الرسامين والنقاد وعن قصائد ألفها ونشرها في مجلاتٍ تمنع الرقابة دخولها! يحس أحمد أنه يمضي نحو الهوة دون أن يفكّر... كل يوم يشعر بتفاهته وتفاهة حياته، يقصّ شعر الرجال ويحلق ذقونهم، يحاول قراءة أفكارهم من شكل رؤوسهم، يدخن بشراهة ملاحقاً الدخان الذي يرسم دوماً وجه فريد.

يجد أحمد نفسه مضطراً إلى أن يؤمن بالقدر كي يخفف عذاب روحه، احتل القدر حديثه في الفترة الأخيرة، يسألني ويسأل الأصحاب: ألا تعتقدون أن قدر فريد أن يموت في العشرين؟... لم أحاول أن أفتش عن خلفية هذا السؤال

اعتقدت أنه يحاول أن يخفف عن نفسه ألم فقدان الحبيب، إلى أن أتاني خبر سقوطه من الطبقة الثامنة!! . . يُقال إن قدمه زلّت وسقط، وأنه على الأغلب كان سكران، لكني لم أصدق أبداً تلك القصة، فأحمد أراد أن يموت، من نسيج يومه العادي تنبعث رائحة الموت.

كانت جنازته متواضعة جداً، ومعظم أصدقائه تعللوا بأعذار قاهرة ولم يودعوه إلى مثواه الأخير. . .

أحمد كان يبتسم وهو ميت، ابتسامة صافية حقيقية، عجز عنها وهو حي.

١٣

مدرسة الأمل للمعاقين

كنتُ مضطرة للابتسام وأنا أتأملها منهارة، كي ألجم انفعالاتي العنيفة التي تثيرها فيَّ دموعها الأشبه بالطوفان وصوتها المختنق بالألم، صديقتي الصغيرة ذات الخمسة والعشرين ربيعاً تعاني آلام الحب الخارقة.

في مطعم لطيف جلست قبالتي غير مبالية بنظرات الفضوليين الذين يتفرجون على دموع شابة، مشهد يمزق القلب حقاً، فتاة رقيقة تذوب ألماً من حبيب هجرها. اقترب منّا النادل وقبل أن أسألها ماذا تشربين؟ طلبت ويسكي، استحسنتُ فكرتها عسى الكحول يهدئ روعها طلبتُ حلوى الزبيب التي أحبها وبعض المقبلات، شربتْ الكأس الأولى بسرعة كما لوأنها راغبة بغيبوبة عاجلة، رجوتها أن تأكل بعض الطعام، هزّت رأسها بالنفي وقالت وهي تمسح دفقة دموع غزيرة بكومة مناديل ورقية: لا أستطيع، لم أبتلع لقمة منذ ثلاثة أيام.

أحسستُ بالخجل لأني آكل حلوى الزبيب بشهية، مازحتها قائلة: أتعرفين حلوى الزبيب أكثر إغواء من الرجل. . . . يبدوأنها لم تفهم ما قلته، بيننا هوّة، كنتُ قد بلغتُ عمر النضج، العمر الذي ما عاد الإنسان يعاني فيه آلام الحب، كنتُ أعجز عن فهم جحيم حب يائس، وكنتُ أبدو باهتة أمام تمثال الألم الحي الذي تجسده تلك الشابة ومع ذلك قلتُ لها ما يُقال في تلك الأزمات، لكنها لم تبال بما قلتُ، أخرجت من حقيبتها قرصي فاليوم وابتلعتهما مع جَرعة كبيرة من الويسكي. أمسكتُ يدها الباردة بغضب وقلت بتحذير: اسمعي، الكحول مع الفاليوم يتحول إلى سمّ. قالت باكية: هذا أفضل.

صار صوتها رخواً بعد الكأس الثانية، ولم تكف دموعها لحظة عن الانهمار، أدهشتني غزارة دموعها، وفكّرت في أن الغدد الدمعية ممتازة في تجاوبها مع الألم، لكن هناك بشر تجف دموعهم في المصائب، ترى من أي نوع أنا؟ آه لم أعد أتذكر. . . . فلم أعد أبكي على ما أخسر بل ابتسم بمرارة.

كنتُ أداري التوتر الكبير الذي تسببه لي حالتها المنهارة، آمنتُ بأنّ الحب مرض بللتُ منديلاً بالماء ومسحتُ وجهها المتورم، رجوتها أن تأخذ إجازة من البكاء وأن تصغي لي، حدثتها كما لوأنها طفلة: اسمعي يا غاليتي، لم تعرفي سوى القلق والقهر مع هذا الرجل، فلمَ تتألمين لأنه هجرك؟!. . . يجب أن تفرحي فقد تحررت من علاقة مرضية لم تعطك سوى الألم والتشتت والضياعَ، واسمحي لي أن أقول الفشل أيضاً. . . فقد أهملت عملك وتعرضت لعقوبات بسببه.

قالت: هذا ه والحب.

- لكن، كيف تحبين رجلاً يعذبك كل هذا العذاب؟

- إنه لا يقصد تعذيبي.

يبدوأنها رغم تهالكها من العذاب، لمحت الدهشة والاستغراب في عيني، فاستطردت تشرح لي وجهة نظرها بصوت رخوشاحب يشبه الأنين: إنه رجل رائع، شاعر، حساس، حنون، حين يكون بمزاج مرتفع يرسل لي كل ساعة كلاماً مدهشاً عن طريق الهاتف الخليوي، ثم أنك تعرفين أنه كان يقطع مسافات طويلة ليراني ساعة على الأكثر.

- لكن عمر سعادتك معه قصيرة جداً مقارنة بالألم الذي سببه لك، شعرتُ بأنّ مهمتي أن أثير فيها الارتياب والشك بهذا الحب، فهذا الرجل سادي، سعيد بعذابها، يحس بأهميته حين يراها منهارة، طوال عامين من علاقته بها تكشفت لي خطته بوضوح، يدللها، ويغرقها باهتمامه وعواطفه، ثم يهجرها فجأة بقسوة ووحشية ودون سبب، أو يختلق أسباباً واهية خلّبية، و يتركها تتمرغ بآلامها وحبها وهويراقب تلك الحالة متلذذاً. . . .

لم تكن قادرة على استيعاب تلك الحقيقة، لأن الألم رضّ إدراكها وحين طلبتُ إليها وأنا أربت على يديها الباردتين اليابستين أن تبذل جهوداً لنسيانه وسوف أساعدها بخبرة سنوات النضج التي أحملها على كتفي، لكني في الوقت نفسه أحسد تلك الشابة على حرارة عواطفها، وعلى أنّها لا تزال قادرة على تصديق ذلك الوهم الجميل: الحب.

نظرت إليّ باستعطاف قائلة: ولِمَ لا أبذل جهوداً لإحياء العلاقة من جديد؟!!. .

فجأة خطفتني ذكرى بعيدة، اعتقدتُ أني نسيتها، ذكرى سطعت صورها أمامي دون ألم، كنتُ في الثانية والعشرين، أتذوق بدهشة أحاسيس الحب البكر الأشبه بألوان قوس قزح، كان يكبرني بخمسة أعوام، أحببته لأنه كان يحدس دوماً أفكاري ويفاجئني بها، كنتُ أنظر إلى الحبّ بشيء من الورع وكنتُ أكتب له جملاً منمقّة، آخذ معظمها من قصائد الغزل والأغاني العاطفية وأكتبها كما لو أنني ألفتها، لم أكن أفهم وقتها أن هنالك نموذجاً من البشر يتلذذون بآلام الآخرين ويعتبرون أنفسهم مهمين حين يتألم الآخرون بسببهم، كانت علاقتي معه تتأرجح بين حب شديد وألم شديد، ولم أفهم لماذا يفتعل الشجار معي ويشتمني ويهجرني، ثم يعود نادماً ليغرقني بعواطفه؟!!....

للحظة توحدت مع صديقتي الصغيرة، صار لنا الصوت ذاته والنظرة ذاتها، تذكرت أنني طالما اضطررت لابتلاع أقراص الفاليوم كي أهدئ آلام الحب.... لم أتذكر الحادثة التي أدت لقطع العلاقة بيننا، لكن المشهد الأخير حُفِرَ في ذاكرتي إلى الأبد، كنتُ أركض في الشارع بلهفة حب جَامح ينهشني بلا رحمة ودموعي تتساقط أمامي كمطر حزين، أحاول اللحاق به لأشرح له كم أحبه وأنّي لا أستحق قسوته، لم أبال بنظرات المارة المشفقة، ولم أكترث حين تعثرتُ وجرحتَ ركبتي وأخذ الدم يسيل منها، كان ذاهباً لحضور مباراة بكرة القدم بعد أن أشبعني شتماً وتجريحاً ورغم أن الفتيات لا يقصدن الأندية الرياضية، فلم أتردد لحظة في الدخول والبحث عنه، لم أعد قادرة على الركض، استوقفت سيارة أجرة، سألني السائق

برقة: خير يا ابنتي، ما بك؟ قلتُ له: أبي مريض في المشفى، دعا له بالشفاء، عند الإشارة الضوئية الحمراء، لمحتُ شاباً مُعاقاً يعبر الشارع مستعيناً بعكازين، وجهه وسيم وهادئ، نظرته دافئة واثقة، يداه تقبضان بقوة على العكازين ورجلاه رخوتان مشلولتان. بضربة سحر انقلبت حالتي وانطفأ الحب المريض الذي نهش روحي كسرطان، لم يعد يعني لي شيئاً ذلك الشاب المتغطرس السادي الذي يذلني ويستمتع بتجريحي، سأنزل هنا لوسمحت، بصوت يتماثل للشفاء أمرت السائق أن ينزلني من السيارة ووجدتني أمشي بهدوء وبطء وراء الشاب المعاق، توقف واشترى علبة سجائر وجريدة، استأنفت السير وراءه ونظري معلق برجليه المشلولتين، كنتُ كالمسيرة أمشي وراءه شاعرة بأنّي أشفى خطوة بعد خطوة.

لم أفهم حتى الآن سر تلك المعجزة، كيف شفيتُ من حب مريض لمجرد أني لمحتُ شاباً معاقاً؟ ماذا عنتْ لي تلك الإعاقة؟ كيف تفاعلت مع قهري وشفتني بلحظة؟ بعد مسيرة قصيرة ومنتبهة، توقف الشاب وجلس في مقهى رصيف طلب كأساً من الشاي وهويتصفح الجريدة، كم رغبتُ في أن أتحدث إليه، لكني على الضفة الأخرى لرصيف الحياة، طلبتُ عصير جزر، شربته مستمتعة بطعم الشفاء، ونظري معلق بالشاب الذي أهداني إعاقته لأشفى كي لا أكون مُعاقة بروحي، كي لا يكون حبي مشلولاً كقدميه.

شكراً، رددتها مراراً وأنا أعود إلى منزلي، رميتُ أقراص الفاليوم في القمامة، ورجوت أخي أن يقول لذلك الشاب

المتغطرس أني غير موجودة حين يتصل بي.

انتفضتُ فجأة وسحبتُ صديقتي الصغيرة من يدها، سألتني إلى أين؟!!... لم أجب، كنتُ مصممة، أوقفتُ تكسي بلهفة وأمرته بأنّ يسرع إلى (مدرسة الأمل للمُعاقين).

١٤

صندوق الضمير الأزرق

كانت تعرف أن نتائج الفحوصات الطبية ستكون سلبية، ولم يستطع أي من الأطباء الذين استشارتهم تحديد سبب صداعها، أحد الأطباء حاول الربط بين نوب صداعها العنيف وسن اليأس، لكنها كانت تعرف أن لا علاقة بين الاثنين، فهذا الصداع ما هو إلاّ صوت الضمير المقموع منذ سنوات.

كانت محط حسد واعجاب من حولها، لأنها زوجة تاجر معروف بنزاهته وثرائه، وأم لثلاثة شباب متفوقين في دراستهم، عدا نجاحها في إدارة حضانة للأطفال.

والأهم من كل ذلك، الحب العميق الذي يربط أفراد أسرتها ببعضهم البعض. ماذا تنتظر أكثر من ذلك؟ فما الذي ينقصها ويجعل رأسها ينفجر من الصداع الذي يتركها أحياناً طريحة الفراش لأيام!

بدأت نوب صداعها خفيفة بعد ثلاث سنوات من زواجها، وكانت تعالجها بالمسكنات ثم اخذت تلك النوب تشتد، حتى

صار ألمها غير محتملاً ولا يهدأ على أقوى المسكنات. وسط عذابها الذي لا شكل له، ما كانت تعرف تحديد أزمتها وكيفية علاجها، فوحدها تعرف أن سبب صداعها نفسي، لكنها تقف مشلولة، عاجزة عن التصرف، إلى أن قرأت ذات يوم تلك العبارة، فتبلبل كيانها كله: «إن الحجر الذي رماه البناؤون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية في البناء».

لماذا زلزلتها تلك الجملة واعتبرتها بداية الرغبة بالتطهر من آثام الماضي، أجل فتلك الذكريات التي حاولت إهمالها، معتقدة أن الزمن كاف لمحوها، بل اعتقدت أن الزواج سيطردها، تلك الذكرياتُ الآثمة هي حجر الزاوية في حياتها، وهي التي يتمحور حولها كيانها كله.

أكد لها الزمن أن الكذب لا يؤدي إلا إلى التعاسة والدمار النفسي، إنها تدرك أن أساس أمنها الأسري وسعادتها، الكذب، والغش. لقد خدعت زوجها بطهارتها الزائفة وبالتالي خدعت أولادها، ماذا لو عرفوها على حقيقتها؟ ولماذا تنتابها تلك الرغبة العنيفة بالبوح بالحقيقة بعد تلك السنوات الطويلة من الأمن الأسري، حتى لو كان الثمن تعاسة كل أحبائها.

تلاحقها سنوات الإثم، وتقلق سلام روحها، وكلما ألحت على نفسها في طرد تلك الذكريات، تكثفت في ذهنها أكثر فأكثر. ذلك الزمن البعيد الذي يبدو لها كنفق مظلم لا نهاية له، يومها كانت تغلي بالأحقاد على الرجال، الذين اختصرتهم بشخص والدها. والدها البخيل الذي طلّق أمها بعد عشرين سنة رماها رمية الكلاب، وتزوج (عاهرته) كما كانت تسمي

تلك الشابة اللعوب، التي عرفت كيف تجعل رجلاً مشهوراً ببخله يغدق عليها المال بلا حساب.

لم تكن وقتها قد أكملت العشرين، مختنقة بالقهر الروحي والمادي، تعيش في مدينة غريبة لتتابع دراستها الجامعية في اللغة الإنكليزية، شجعها حقدها على والدها، والغربة، وشفقتها على أمها، خصوصاً وهي تعيش في عاصمة مزدحمة بالغرباء، كل تلك الأسباب شجعتها على رسم خط حياتها مستندة إلى ركيزتين - الحقد على الأب - الرجل - والحب الكبير والشفقة على الأم - المرأة - وبين هذين القطبين كفرت بالحب والإخلاص، وآمنت بأنّه من الجنون أن تُخلص امرأة لرجل، استغلت شبابها وفتنتها، وعاشرت رجالاً كهولاً أثرياء، أغدقوا عليها الهدايا الثمينة، وإذا قصّر أحدهم في تلبية رغباتها، استمتعت بإذلاله، وقطعت علاقتها به، إلا إذا استرضاها بالكثير من الهدايا الثمينة.

لم تقدّر وقتها الآثار النفسية الكارثية لسنوات الإثم في الجامعة، وكانت رغم انحلال سلوكها متفوقة في دراستها، وخلال ثلاث سنوات إمتلأ صندوقها الفارغ بالذهب وسال المال بين يديها، لكن كل تلك الأمجاد المالية، لم تشعرها بالسعادة، ظلت تحس طعم مرارة حارق، وكانت نوب مفاجئة من احتقار الذات تنتابها فتوقظها من نومها وتجعلها تصرخ صراخاً هستيرياً: أنا قحبة، أنا قحبة.

لم تكن تزور بلدتها الا في الصيف، فتغدق المال على أمها مدعية انها تعمل إضافة للدراسة، وقد انقطع والدها عن إرسال المبلغ الزهيد لها حين علم انها تعمل. وحين أنهت دراستها

الجامعية وعادت إلى وطنها لتتسلم وظيفة حسدت عليها في أشهر مصرف في المدينة، تقمصت بنجاح الشخصية التي أرادت أن تكونها، نفذت خطتها بإحكام، وبالغت في الاحتشام وتمثيل العفة والتزمت، وتمكنت خلال فترة وجيزة من إيقاع شاب ثري - كان يملك حساباً مصرفياً كبيراً في المصرف الذي تعمل فيه - في غرامها، وكان الشاب ابن عائلة ثرية معروفة بنشاطها في تجارة البناء، وحين تقدم لخطبتها، طلبت مهلة للتفكير، وطوال أشهر الخطبة منعته من تقبيلها تاركة إياه في حالة لهاث مستمر للحصول عليها، مما دفعه للإسراع في الزواج. وقبل حفل الزفاف بيومين، رتقت بكارتها، وحين نزفت شرفها الكاذب في مخدع الزوجية، اسرعت إلى الحمام لتتفرج في المرآة على تعبير الشماتة في وجهها، أحست وهي تسبر عمق نظرتها المتهللة بالنصر، إنها تنتقم لأمها - وللنساء - من والدها - والرجال - ضحكت وهي تحدث نفسها بأن كلمة المخدع الزوجي مشتقة من الخداع.

لم تفكر في البداية في أنها بَنَت حياتها على الكذب، بل كانت تبرر سلوكها تماماً، بأنه تحصيل حاصل لعقلية الرجل المتخلفة. لكنها وبعد أن صارت أماً تحديداً، أحست بولادة مشاعر جديدة في نفسها، شاعرة بأنّها تتعمد بالنقاء والطهر، ثم انها أحبت زوجها لأنه لطيف وكريم وصادق. وحين رزقت بإبنها الثالث الذي كان مريضاً في قلبه وأجريت له جراحة وهو لم يكمل الشهرين من عمره، آمنت بأنّ مرض صغيرها هو عقاب إلهي لها على سنوات الإثم.

ثم بدأت نوب صداعها تشتد، اعتقد زوجها أن سبب صداعها الإرهاق، فهي ترفض أن تساعدها امرأة في عمل المنزل، إذ أنها تخدم زوجها وأولادها غير مبالية بتعبها الجسدي، بل على العكس تحاول عن طريقه تسكين ضميرها. ثم بدأ وجهها يتغير تدريجياً ففقد تعبير الراحة، وأخذ يُظلم، وقد جمّد القلق ملامحها، وبدأ إحساس جديد أشبه بالنمل ينتشر في أطرافها ثم يغزو جسدها، إنها مُدنسة. ودنس الروح صعب لا يمكن معالجته كدنس الجسد ثم بدأت تشعر بأنّ حزناً جليلاً يهبط على كيانها حزن عميق كضباب كثيف يعزلها عما حولها، صارت ذكريات سنوات الإثم تلاحقها بطريقة لا مجال للهروب منها، بل إنها صارت تستثير تلك الذكريات عامدة كي تعاقب نفسها. ومع الأيام، وحيدة مع عذابات الماضي، ما عادت قادرة على أن تحدق طويلاً إلى عيون أولادها وزوجها، كانت تشيح بنظرها عنهم وهي تحس بضيق وحرج، مكتوية بحقيقتها الآثمة، بل أنها صارت تشعر بأنّها لا تستحق محبتهم، ولا تجرؤ على أن تحبهم وروحها مدنسة.

كانت كآبتها تزداد كلما ازداد تقدير زوجها وأولادها، وكلما عبّر الناس عن عمق احترامهم لها واعجابهم بها. وحين فاجأها موظفّو حضانة الأطفال التي تديرها بحفل لتكريمها كسيدة فاضلة مثالية.

أصابتها نوبة من الرجفان والضحك العصبي، واضطرت للإنسحاب من الحفل متعللة بوعكة معدية وفي منزلها تقيأت والصداع يفجّر رأسها شاعرة بأنّها تتقيأ آثام الماضي. تنبهت لحقيقة أدهشتها أنها صارت تضحك كثيراً مدارية توترها،

لكن ضحكها ما عاد يُعبّر عن أي فرح فهي تحس أنها محطمة داخلياً، ولم تعد قادرة على إكمال قراءة مقال، فذهنها مضطرب دوماً، وأفكارها تتلاحق بفوضى ثم تسقط متعثرة بسبب بلبلة غامضة تملأ كيانها. بل إن نوب رجفان صارت تنتابها حين تنظر في عيني زوجها وعيون أولادها، فتحس أنّ نظراتهم تخترقها اختراقا. أما محنتها الحقيقية فتبدأ في الليل حين يزداد استعار ندمها ورغباتها بالبوح بالحقيقة. إنها تشعر بحاجة محمومة لعدالة عليا، تتوق للعدل كما لو أنه أقوى غريزة في الوجود لدرجة أنها سألت كل من حولها إن كان هناك توق غريزي عند الإنسان للعدالة. إنها أسيرة شعور طاغ لا تستطيع مقاومته - أشبه بنداء علوي - يجبرها على الإعتراف.. أجل لن تتطهر نفسها إلا بالاعتراف الصادق فهي بحاجة لإعادة بناء كرامتها على أساس الصدق، فما نفع حياة قائمة على الكذب.

عند الفجر تقوم منهكة من انفعالاتها المستعرة طوال الليل، تتأمل هيئتها في المرآة، فتحس إنهاكها. صار منظرها كمنظر إنسان يحتاج إلى أن يسترد قواه.

ألّحت عليها الرغبة بالإعتراف لدرجة شعرت بأنّها تعيش في حالة مستمرة من نفاذ الصبر، وأحياناً من الوَجد، فهي تتوق للخلاص الذي لن يتحقق إلا بالإعتراف، تحدث نفسها: أحبائي يجب أن يعرفوني على حقيقتي، زوجي الطيب المخلص المخدوع يجب أن يعرف أني ضاجعت رجالاً كثيرين وحصلت على المال.

كانت تطيل النظر إلى زوجها وهو نائم أو وهو يتفرج على

التلفاز، فلا تعرف من يستحق الشفقة أكثر - هي أم هو -؟ بدت حياتها مستحيلة لأنها غير قادرة بعد على تحمّل سرّ قلبها، قررت أن تقول الحقيقة، وبدت مستعدة لتقبل كل النتائج المأساوية الناتجة عن ذلك. لجأت لمصارحة أختها بما تنويه كخطوة أولى في طريق التطهر، حكت لها ماضيها وعذابها بسبب سنوات الإثم وقرارها أن تعترف لزوجها وأولادها بسنوات الإثم. لم تصدّق أختها في البداية، اعتبرت ما سمعته هذياناً، بل اعتبرته بداية مرض نفسي وحاولت إقناعها بأن الماضي مات وبأنها في الحقيقة امرأة ممتازة وزوجة مخلصة وأم متفانية. لكنها لم تقنع إطلاقاً بمنطق أختها، بل ازدادت تشبثاً برغبتها في الإعتراف لأسرتها بماضيها، فهددتها أختها بأنّها ستقول للجميع إنّها جنّت، وأن كلامها هذيان.

لكن المرأة المكتوية بالندم ضحكت ساخرة من أختها وقالت لها: لكني أملك أدلّة.

بحلقت أختها كأنها تتعرف إلى وجهها لأول مرة: أدلّة؟ ما هذه الأدلّة!

أجابت بصوت هامس: أخبىء صوري مع عشاقي في صندوق صغير، صوري الآثمة وأنا عارية في أحضانهم فوق فراش العهر.

- وكيف تحتفظين بهذه الصور، هل أنت مجنونة؟!

- هنا يكمن السر! أتعرفين، مراراً قررت حرق الصور وتمزيقها، لكني كنت أعجز، إرادة غامضة كانت تمنعني من إتلاف صوت الضمير. فما هذه الصور إلا صوت الضمير الذي

ظل غافياً لسنوات.

- أنت مجنونة حقاً، خسارة لقد فقدت عقلك.

لم تستطيع الأخت أن تفهم أبداً ماذا يعتمل في نفس أختها المعذبة بآثام الماضي، ولم تفهم كيف تستطيع إنسانة بكامل قواها العقلية أن تطوّح بسعادة وشرف أسرتها، وتجني الدمار النفسي لأحبائها والفضيحة.

حاولت استدراجها في الكلام لتعرف أين تخبىء صندوق الصور، لكن المرأة المشتتة بالعذاب رفضت أن تبوح بسرها: لن أقول لك أين الصندوق، وتمتلىء عيناها بالدموع ثم تقول أريد أن أبرأ، إن كل حياتي قائمة على الكذب.

- لكنك تغيّرت.

- لا يهم، ما عدت قادرة على أن أتحمّل عذاب الكذب، كياني يتوق للحقيقة.

- فكري كم ستسببين الألم لأولادك وزوجك، فكري بالفضيحة.

في تلك الليلة شعرت بأنّها تتوهج كجمرة، أخرجت صندوق الضمير من مخبئه، دخلت غرفة أولادها حافية محاذرة أن تصدر أي صوت، تأملتهم بنهم وشوق عظيمين مستعينة بنور قمر شاحب ووحيد مثلها. تمنت لو تقبلهم لكنها تعرف أنها ستوقظهم، ركعت على الأرض، وقبّلت أحذيتهم كاتمة صوت نشيجها.

ثم خرجت من دنياهم كشبح، ووضعت صندوق ضميرها قرب سرير زوجها ورغم الظلام حولها فإنها أحست أن إحساساتها الغامضة المبهمة قد توضحت وأن نوراً مبهراً يخرج

من نفسها، أحست ظمأً حاراً إلى التطهّر، ومن دون ان تنظر إلى نفسها في المرآة، رأت ضياء وجهها وابتسمت ابتسامة عميقة. لبست ثيابها، وحملت حذاءها بيديها، ولم تلبسه إلا بعد أن خرجت من البيت، نظرت في ساعتها أدهشها أن الصبح طلع مبكراً، تهللت نفسها فرحاً، الصبح طلع لأجلي، بل نور الصبح طلع من روحي المتعمدة بالشفاء.

١٥

ظل أسود حي

كانت ترتعش كعصفور مبتل بالمطر، حين طلب إليها طبيب الأمراض النسائية بصوت ميت وقطعي أن تخلع سروالها وتتمدد على سرير الفحص، أحست أنها تغوص في برميل من الهيولى وهي تسمع الطبيب ينطق بهذه البساطة العارية كلمة سروال. وفجأة ارتعش فمها بخلجات قوية جعلته يتقوس بشدة باتجاه الأسفل، ودت لوتبكي، لكنها زجرت نفسها فليس الآن وقت البكاء. وصرخ صوت ملتاع في داخلها: بل هذا وقت البكاء، البكاء الذي لا ينتهي إلا بالقبر، البكاء الممتد عبر التاريخ، بل بكاء التاريخ نفسه، ورغم أزمتها المتكثفة في تلك اللحظة، فإنها لم تتمالك نفسها من الإعجاب بتعبير بكاء التاريخ نفسه من خلال عينيها.

أمرها أن تخلع سروالها فيما هوينتظر في غرفة مكتبه، وعليها أن تذعن، تنهدت وهي تقول: يا إلهي أية ورطة فظيعة هذه؟ وضعت حقيبتها على كرسي جانبي قرب سرير الفحص،

وهمت بأن ترفع تنورتها، لكن صوراً مباغتة صفعتها وجعلت وجنتيها تلتهبان. تذكرت اللقاء المحموم مع حبيبها، كان يوماً حاراً في أواخر تموز وقد تواعدا على اللقاء سراً في بيت أخيه المتزوج حديثاً، سيكون الأخ وزوجته في الوظيفة، وهي ستهرب من المدرسة لتلقاه، سيرشفان الحب المختزن طويلاً في قلبيهما المتورمين من الحصر، ليعود هوبعد ساعات إلى خدمته الإلزامية، وترجع هي إلى تحنّيط أسرتها الأبدي، لم تكن تعرف أن الأمور ستسير كما سارت، وهي في الحقيقة لا تعرف كيف تتطور عملية لقاء رجل بامرأة، كانت ثقافتها الجنسية ضعيفة، حتى تشريح جسدها ما كانت تعرفه بدقة، فرت من المدرسة قبل ساعتين من انتهاء الدوام متعللة بآلام بطنية، اعتقدت المديرة أنها آلام الطمث، كان قلبها يقرع كالطبل وهي تصعد درج الشقة المحرمة، وهناك كان ينتظرها بشوق مضاعف، ضاعفه إهانات الجندية والحرمان الطويل. لمست جبهتها ليتأكّد لها أنها ليست صريعة حمى مباغتة. كان الدم يتدفق من أذنيها ووجنتيها، وكانت راحتاها ساخنتين كرغيفين، احتضنها، لم تمانع كما توقعت، أغمضت عينيها وهي تغيب شيئاً فشيئاً عن عالمها في المدرسة والبيت. فقدان ذاكرة كلي، شعور وحيد طاغ جمعها به، توحدت به واستسلمت لمتعة تبادل الأنفاس، وحين تمددا على السرير، همت بأن تقوم، مانعت، لكنها كانت تشعر بأنّها مصابة بدوار، جذبها من يدها، وأعاد التحامها به، ورفع تنورتها و . . . . . صفعتها هذه الصور وهي تهم أن تنفذ أوامر الطبيب، تجمد نظرها على سرير الفحص، لماذا هو قصير جداً؟ وما هاتان

الرافعتان على جانبيه؟ دهشت لأنه يكاد يتسع لطفل في الخامسة من عمره، كان شرشفٌ أبيض مطويّ بأناقة ينتظرها فوق السرير، سمعت صوت الطبيب جافاً يسأل: هل أنت جاهزة ولم تعرف أن الصوت الذي سمعته مرتجفاً يجيب: لحظة سأكون جاهزة، كان صادراً عن حنجرتها، إذا عليها أن تذعن لما يأمر به الطبيب. تذكرت منذ سنتين يوم أصيبت بالتهاب قصبات حاد، كيف ذابت خجلاً والطبيب يكشف عن نهديها ويضع سماعته المعدنية الباردة على صدرها، الآن عليها أن تخلع سروالها. أغمضت عينيها ما أقسى هذه اللحظة، جلست على حافة السرير بعد أن كورت السروال في يدها، لم تعرف كيف ستتمدد، أجهدت نفسها لتقول وكأنها تلقي نفسها من شفير هاوية إلى العدم: أنا جاهزة.

دخل الطبيب، أمرها ببرود أن تتسطح، وأن تغطي بطنها بالشرشف وبأن تباعد ما بين فخذيها قدر استطاعتها... ندت عنها صرخة آه لا إرادية وقوية، قال آمراً: هيا لا تعطليني فالعيادة تغص بالزبائن.

تساءلت: أين هو، وتخيلته في الخارج ينتظرها، ليته يكون إلى جانبها لتتشجع. لكن كيف سيراها في هذا الوضع المهين؟ تسطحت وغطت بطنها وساقيها بالشرشف. تخيلت شفرة مقصلة لامعة وحادة تهوي عليها وتريحها من الحياة وللحظة شع وجهها بابتسامة حقيقية وعذبة، كانت تبتسم للموت. وتساءلت بعذوبة: آه من قال أن الموت بشع ومخيف؟ اقشعر بدنها وهي تحس براحتي الطبيب تباعد بين فخذيها، كتمت صراخاً وعويلاً في داخلها كما تعودت أن تكتم أشياء وأشياء.

أمرها بصوت قاس: استرخي، أخذت أسنانها تصطك بقوة مصدرة صوتاً كالقرقعة. قال لها الطبيب: استرخي لن أتمكن من فحصك هكذا، قالت وسط قرقعة اصطكاك أسنانها: لا أعرف، لا أعرف.

رأته يلبس كفا من النايلون ويدهن سبابته والوسطى بالفازلين، شهقت وأغمضت عينيها هاربة من جسدها، وهي تحس الإصبعين تسبران أعماقها.

صرخ كفى، لا تتشنجي، قلت لك استرخي.

قالت ودموعها تتشكل ككرات من زجاج هش وتنهمر أفقية على صدغيها:

- لا أعرف، لا أعرف.

رد ساخطاً: كل شيء لا تعرفينه، كيف عرفت أشياء أخرى؟

ابتلعت الإهانة. وجدت نفسها تتوسل إليه: أرجوك كفى.

كانت راحته الأخرى تضغط أسفل بطنها عند خط شعر العانة، كانت روحها تئن قائلة: يا للعار، يا للعار، ولا تعرف كيف قفزت جملة إلى ذهنها لعلها قرأتها أوسمعتها: خمس دقائق لذة، تسعة أشهر ألم.

أين قرأت أو سمعت هذه الجملة، وأعملت ذهنها في التذكير هاربة من طريقة صلبها الاستثنائية، وتخيلت عابثة أن النساء يصلبن بهذه الطريقة، على سرير وهن يباعدن بين فخذيهن، وهللت لفكرتها وهي تؤكد لنفسها: نعم هكذا تصلب النساء.

أخرج إصبعيه من داخلها أخيراً، بعد زمن بدا لها دهراً،

أخذت رجفة حادة تخض جسدها، سألها: ما بك، حسناً قومي، لقد انتهى الفحص.

وكأنه استدرك، قال: مهلاً انتظري لحظة، سأفحص رحمك لحظة على جهاز الايكو. قرب منها جهازاً له شاشة صغيرة تشبه شاشة التلفاز، وعصر هلاماً أسفل بطنها ضغط بقلم بلاستيكي فوق الهلام، وهو يتابع خطوطاً بيضاء وسوداء متراقصة على الشاشة، وأشار إلى نقطة سوداء لا تزيد عن عرض إصبعين قائلاً: هذا هو الحمل، عمره ثلاثة أشهر تقريباً.

أمكن لها أن تحس بومضة خفقان حب عجيب لهذا الظل الأسود، ظل جعل عاطفة قوية وخام تتحرك بقوة في أعماقها، تركها وحيدة وخرج، بعد أن أعاد الجهاز إلى مكانه. طفت عيناها بالدموع، هذه المرة دموع غريبة فيها حلاوة لم تعرفها من قبل، رغم طابع المرارة الشامل الذي يطبعها، قامت متيبسة وهي تشعر بأنّها كبرت دهراً. لبست سروالها ودموعها تتساقط بغزارة على الثياب والبلاط. همست لنفسها بحب: في أحشائي جنين، رأيته، عاينته، أحببته كما لم أحب من قبل، أتراها اكتشفت مشاعر الأمومة في تلك اللحظة، لم تستطع الخروج في الحال الآن لأن عاصفة الدموع كانت في ذروتها. ولعظيم دهشتها أحست بحب لا يوصف لذلك الظل الأسود الصغير الذي رأته على الشاشة، ستجهض، آه بالتأكيد، ما من مفر، لا يمكن أن يتزوجا وهي الطالبة القاصر، وهو الشاب الذي يشحذ مصروفه من أخيه. يجب أن يداريا الفضيحة، لكن كيف تورطا، كيف لم تصن نفسها كما علموها، وشددوا

عليها، كيف، أوّاه اتركيني الآن أيتها الكلمة الكريهة القاسية. هكذا صرخت، وهي تتهرب من الجواب، بل لتجيب بعد لحظة بعبث كامل: الجواب هكذا، هكذا، ما كانت تعرف شيئاً عن فيزيولوجيا جسدها، ولم تسمع عن أيام الإخصاب من قبل... وما قيمة أن تعرف، حين يكون الحب لصاً يتربص فرصة للسرقة.

غسلت وجهها، وأحست أن الطبيب زود غرفة الفحص بمغسلة كي تغسل النساء دموعهن بعد الفحص. خرجت إليه، كان ينتظرها قلقاً في مكتب الطبيب، جلست إلى جواره دون أن يتبادلا نظرة، أحست كم هو مرتبك وخائف، قال الطبيب: أنت حامل في شهرك الثالث.

وسمعت صوته واهناً: العملية يا دكتور، أقصد الإجهاض.... واختفى صوته.

رد الطبيب: العملية أجريها في عيادتي خارج أوقات الدوام الرسمية.

سأل الشاب: والمبلغ...

رد الطبيب بثقة: خمسة آلاف ليرة.

شهقت وهي ترد: خمسة آلاف ليرة.

خبط الطبيب يديه على الطاولة منزعجاً: والله هذه تسعيرتي، أقصدي غيري لو أحببت...

أحست بسخريته اللاذعة وعدم احترامه لها، تدخل الشاب وقال بصوت مرتجف:

- عرفت من صديق لي أن طبيباً أجرى إجهاضا لزوجته، وطلب ألف ليرة، لا تؤاخذني، لكن...

قاطعه الطبيب ضاحكاً: آه حقاً، لكأنك اكتشفت لغزاً، يا أخي تسعيرة إجهاض المتزوجة ألفا ليرة والعازبة خمسة آلاف...

بحلقت بالطبيب مندهشة وتساءلت: وما الفرق؟.

رد ساخراً: الفرق، ثمن الفضيحة، حمل المتزوجة لا يعتبر عاراً...

كانت مذهولة، أتراه يعلن بكل صفاقة أنه يستغل أزمتها، تخيلت أنها ستعطي حبيبها خاتمها الوحيد. حاولت أن تقدر ثمنه، وتساءلت: من أين سيؤمن المال؟ وماذا سيبيعان وهما لا يملكان سوى حب جارف قادهما إلى عوالمه المحرمة، وعادت تفكر بذاك الظل الصغير الأسود، وعاد قلبها يخفق بحب عجيب، وندت عنها صرخة خرساء وهي تتساءل: كيف سأقتل ابني؟!

وتخيلت صورة طفل بعمر سنة، خدّاه ورديّان، يشرب الحليب، تتشممه، تضمه، يا الهي كيف صارت أما، وتحب بلا حدود. حب يغمرها ويشكلها امرأة جديدة، ولكن الفضيحة والعار.

وسمعت صوت الشاب يسأل: أرجوك يا دكتور، ألا يمكن أن تراعينا قليلاً.

قاطعه الطبيب بلهجة قطيعة: آسف، لا تساومني حول أجرتي، لا تنْسَ أنني أخلصك من ورطة كبيرة.

اتفقا على أن تجرى العملية مساءً بعد انتهاء الدوام الرسمي للطبيب، نظر إليها الطبيب وقال: في الحقيقة هناك مشكلة بسيطة.

سألت باستغراب: مشكلة!

قال الطبيب: في الحقيقة وضع رحمك شاذ قليلاً، أقصد أنه منقلب للخلف.

سأل الشاب قلقاً: تقصد العملية خطيرة.

رد الطبيب: لا، العملية بحد ذاتها ليست خطيرة، إنما تجريف رحم مقلوب إلى الخلف، صعب، قد يعرضنا لمشاكل.

قالت وهي تحس أنها تسمع لغة لا تفهمها: مشاكل، مثل ماذا؟.

ابتسم الطبيب: آه لا تقلقي، إن شاء الله، كل شيء سيمر بسلام.

قال الطبيب معلقاً: لا تخافي، أحياناً قلع ضرس يعرض لمشاكل خطيرة، إنما لا يعني هذا أن يتوجس الإنسان شراً من قلع الضرس.

انهمرت دموعها وهي تستغيث وتريد لوتقول، إن الذي في أحشائها يغمرها بالحب، ليس ضرساً ملتهباً ولا تالفاً، أطرقت هاربة من وجه الطبيب ووجه الحبيب، أطرقت في الظل الأسود والصغير الذي رأته على الشاشة، يخفق، إنه حي، في أعماقها، في قلبها، وسيجعلها أماً فيما لوبقي، إنها تحبه، تحبه أكثر من أي شيء، وفي ومضة عين زارت كل محلات الألعاب، وكل محلات ألبسة الأطفال، وأمكنها أن تسمع صوت ضحكات الأطفال، وبكائهم، أمكنها أن تشم رائحة الحليب واليانسون وأن تراقب بعين خيالها الخطوات الأولى للأطفال، آه أية مجرفة ستسلخ الصغير من أحشائها، ودت لو

تسأل الطبيب :

– من أعطاك المجرفة يا دكتور؟

وصور لها خيالها أن المجتمع بأكمله رجالاً ونساء، ينظرون إليها بقسوة وشفاههم مطبقة، وقد شبكوا أيديهم خلف ظهورهم، وفجأة، ينفك اشتباك الأيدي، ويمدون مجرفات معدنية بحواف كليلة إلى الطبيب ويقولون : خلصنا من العار، من مشروع الطفل في رحم هذه الخاطئة، هيا، اعمل في الظلام . . . .

كانت تبحلق في الفراغ أمامها، وتجد كل شيء مقلوباً كرحمها، أخذ قلبها يطرق بعنف في صدرها، صاعداً إلى أذنيها ليجعلهما تطنان بتدفق النبضات، مموهة صوت الشاب الذي كان يخرج كل ما في جيوبه ليدفع للطبيب الدفعة الأولى، وليرهن ساعته، وسلسلة عنقه التي تحمل صورة برج الحمل، ويقدمها لخادم الإنسانية، حامل المجرفة المعدنية .

١٦

امرأة من غيم

الثالثة بعد الظهر، إنه وقت التأمل المثالي للنساء الوحيدات، هذا ما فكرت به وهي تنتحي زاوية في حديقة عامة تناثرت فيها طاولات وكراس بلاستيكية، وغير بعيد كشك صغير يديره شاب يقدم الأركيلة والشاي والقهوة للزبائن.

رائحة الخريف وألوانه تحّرضان في نفسها الشجن رغماً عنها، ستبلغ الثانية والخمسين بعد أسبوع، وسيبلغ زوجها العمر ذاته بعد ستة أسابيع. تحس أن الخريف عصب حياتها، فقد تزوجت الرجل الذي أحبته في الخريف، فرا معاً قبل أن يكملا العشرين من عمريهما رغم معارضة الأهل، سرح نظرها في الأعشاب التي بدأ يطغى عليها اللون الأصفر، تذكرت السنوات الأولى من زواجها، كيف عاشت في غرفة حقيرة في قبو لا يدخله شعاع الشمس.

كانا ينامان على فرشة على الأرض ويعلقان ثيابهما القليلة

على تعليقة خشبية مخلعة، ومع ذلك فالسعادة التي عرفتها في تلك السنوات كانت كثيفة وسخية، ولم تعرف ما يشبهها طوال حياتها حتى عندما رزقت بولديها. تأملها النادل بنظرة متفتحة، أحست أنه يحرز أن كرامتها جريحة، ففي نظرته رقة وتعاطف. ابتسمت له، قدرت أنه في عمر ابنها، طلبت معسل الورد وفنجان قهوة.

الطاولات حولها فارغة، امتدت يدها بحذر إلى ظهرها متظاهرة بأنّها تحكه لكنها تمكنت من فك حمّالة نهديها، آه كم تزعجها البدانة، لكن ما باليد حيلة، ما من تعزية سوى الطعام خصوصاً الحلويات. وضع النادل الأركيلة بجوارها، وانتظرها حتى سحبت نفساً وأطلقت الدخان من فمها، شكرته، فرد عليها بابتسامة حقيقية.

كان للقهوة مذاق رديء لكنها لم تمتنع عن رشفها ببطء، أحست أنها تتذوق طعم أيامها. توقفت ذبابة هرمة على الطاولة همت بأن تطردها، لكنها وجدت نفسها تحدق إليها متفرسة كأنها تبين فيها ذاتها، استمر تحديقها إلى الذبابة بعناد وإصرار كأنها بحثت عن حل لغز، ثم طفحت عيناها بالدمع الحار، فيما وجهها ظل هادئاً هدوء الاحتقار والازدراء لزوجها الذي لا يفارق ذهنها؟!

مرت بجانبها امرأة شابة تحمل طفلاً صغيراً، تابعتها بنظرة أسيانة حتى اختفت تفتق بذهنها الذي تحسه متبلداً منذ سنوات سؤال: ما الذي يبقى للنساء بعد الخمسين من عمرهن؟!

ورغم بساطة السؤال فإنه أدهشها لأنها لم تطرحه بتلك

الصيغة العارية البسيطة من قبل ولم تستطع أن تجيب على الفور - كما توقعت - كان عليها استعراض حياتها عسى منطق تسلسل الأمور يقودها إلى نتيجة.

بنظرة مهمومة تابعت الحركة البطيئة للغيوم، ابتسمت بسخرية، فهذه هي الصفة الوحيدة التي لم تتغير فيها منذ طفولتها، كانت مولعة بمراقبة الغيوم وبتشبيه أشكالها. إنها تحسها الآن موكباً من النساء الكئيبات الخمسينيات.

فكرت وهي تسحب نفساً عميقاً من الأركيلة في أنها منذ زمن طويل تشتهي الخروج من عزلة روحها، لكن كل المحاولات فشلت، فابنتها منشغلة بأطفالها، وابنها سافر إلى دول الخليج ليعمل، وصديقاتها تقمصن بسهولة شخصية الجدات، قانعات بالقالب الذي يتوجب عليهن العيش ضمنه، ولم يبق لديهن أية رغبة في طرح سؤال احتجاج، إنها الوحيدة التي لم تكف عن طرح الأسئلة!

مر شريط ذكرياتها بالياً باهتاً أمام ناظريها، لقد برعت في عملها الوظيفي، وكانت زوجة مثالية وأماً ممتازة، كانت مثل النحلة في نشاطها وكالنملة في دأبها، ولم تكن تشكو أوتتذمر من أعبائها، ففي داخلها طاقة مذهلة للعطاء، ولم تعرف الأرق أبداً، إذ كانت تغفوما أن يلامس خدها المخدة.

وحين بلغت مرحلة الراحة وتقلصت مسؤولياتها، وحققت مع زوجها مستوى معيشة مرفهاً أحست أنها تنتظر مكافأة عظيمة من الحياة. لكن الحياة طعنتها في صميم كرامتها جرحاً بليغاً ستظل شفتاه نازفتين مدى الحياة.

فرفيق عمرها تنكر لها وصار يتنقل من عشيقة إلى عشيقة في

البداية كان يحرص على شعورها فينكر علاقاته، لكنه مع الوقت صار يحدق إليها بنظرات لا تنصاع ولا تتكسر ويصرخ في وجه الحقائق التي تواجهه بها أنه حر بحياته، وإن لم تقبله كما هوفهي حرّة باختيار حياتها.

فجأة سقطت الجمرة عن سطح القرص، منبهة إياها لحقيقة ظلت غامضة عنها طول حياتها، إذ إن أهم قيمة في حياتها هي الخوف من الناس ومهابة العادات والتقاليد، فكرامتها الجريحة بعد خيانات زوجها تدفعها لطلب الطلاق، لكن المنطق النفعي للعقل ونصائح المقربين يمنعانها من طلب الطلاق، فمعظم الإمبراطورية المالية التي حققاها مسجلة باسمه فلم يخطر لها يوماً أن تحذر الرجل الذي أهدته روحها زوجها الذي اعتقدت أنها تعرفه وتقرأ أفكاره حتى لوكان كل منهما في غرفة، صار إنساناً غريباً حين بلغ منتصف العمر، تساءلت: ترى لوظل فقيراً، هل تجرأ وعشق شابات في عمر ابنته. تذكرت باشمئزاز أنه أجرى عملية لتجميل أنفه وهو في الثامنة والأربعين. وأنه صار مهووساً بالتمارين الرياضية وبربطات العنق والأحذية الفخمة والعطور.

في بداية اكتشافها لخياناته لم تعرف كيف تكبح انفعالاتها وكيف تتوقف عند حد كانت تتكلم مع الجميع عن خياناته، تعيد التفاصيل ذاتها، تتكلم لساعات طويلة كلاماً أشبه بالصراخ لكنها تشعر بأنّها رغم كثرة الكلام لا تتوصل للتعبير عمّا تريده. ترى ماذا تبغي من وراء تلك الزوابع الكلامية؟! صحيح أنها تشعر بالظلم والقهر، فمشوار كفاحها مع رجل حياتها تمخض عن خيانة. فعند أول علامات ذبول شبابها

هجرها دون أن يشعر بذرة تأنيب ضمير. لكن بطانة صراخها فيه احتجاج عميق للفكر السائد وللتصنيفات الجاهزة والمسلمات التي لا يجرؤ أحد على الاعتراض عليها، إنها تصرخ في وجه الناس لماذا العمر في مصلحة الرجل دوماً؟! ما الفرق بين امرأة في الخمسين ورجل في الخمسين؟ كلاهما يهرم، كلاهما يذبل؟

ثمة هوة كبيرة في تفكيرها تعجز عن ردمها، مجرد تساؤلات تهيم حولها، لماذا لا يستهجن سلوك رجل في الخمسين يرفع شعار المتعة واستعادة الشباب الزائل بإقامة علاقات مع شابات صغيرات؟! بل إنه يكشف عن رغباته بنوع من الوقاحة كأنه يصرخ في وجه الناس بأن كل شيء مباح له.

تململت في مقعدها الذي يضغط بمسنديه على وركيها المكتنزين، وتساءلت كيف سارت حياتها بطريقة لا يمكن التنبؤ بها، تذكرت بألم السنوات الأولى من خياناته كيف أحست أنها تشارف على الجنون، كانت ترفض التصديق أنه يخونها، وتطيش حواسها من الألم وهي تتخيله عارياً مع عشيقته الشابة، فتبكي كالطوفان وتطلب العون من الأصدقاء حتى صاروا يتضجرون منها، وتلتهم كميات هائلة من الحلوى، وأحياناً تجبر نفسها على تقيئها. تابعت دخان الأركيلة الذي يتبدد كأحاسيسها، فكرت في أن كل تعاطف الأصدقاء معها كان سطحياً، في جوهر كلماتهم المغرية لها تراخ ومسامحة لسلوك الزوج الذي استيقظت حيويته الجنسية والعاطفية مجدداً في الخمسين، تظاهري أنك لا تعرفين شيئاً، ودعي أيامك تمر بسلام.

الكل كان يجمع أن أهم شيء في حياتها أولادها، وأن، عليها أن تعطي ذاتها لهم وهي في الخمسين، فهم مستقبلها. كم تشعر بالغبن والظلم من تلك الأفكار تذكرت نصيحة إحدى صديقاتها: اسمعي، عليك أن تخفضي وزنك وتعودي رشيقة وإن لم يعد لك زوجك، فاتخذي عشيقاً، وأنا أفضل لك العشيق، لم لا تجرب المرأة رجلاً آخر غير زوجها، هذا حقها.

استعادت الحوار بينها وبين صديقاتها وابتسمت. ترى ما هو الصواب في كل تلك الآراء المتناقضة التي سمعتها. ترى هل من الصواب في وضعها الحالي أن تقاوم صوت العقل أم صوت العاطفة؟ لكن لماذا كل شيء يختلط بذهنها ؟! أكثر ما يؤلمها إحساسها بالمهانة، ليس لأنه خانها، بل لأنه نسيها حقاً. إنه يعود للبيت مساءً يتعشيان معاً، ويتابعان البرامج التلفزيونية، لكنها تشعر تماماً بأنّها غير موجودة في حياته، يمكنها وهي جالسة في قوقعة وحدتها أن تحس بنشوته مع عشيقته الشابة.

تذكرت ذلك الزمن البعيد حين كان يحتاجها كحاجته للهواء، كم تخيلت وانتظرت أنهما في منتصف العمر سيتأبطان ذراع بعضيهما ويسيران كتفاً إلى كتف مستعرضين مشوار كفاحهما وسيكون أمامهما سنوات طويلة للرفاهية والدفء الوقور لزوجين في منتصف العمر.

نظرت في ساعتها لم تستطع منع نفسها عن تخيله كيف يتأنق ويتعطر ليلتقي عشيقته التي يغدق عليها المال والهدايا. رفعت نظرها إلى السماء، الغيوم ساكنة كثيفة تميل إلى

الرمـاديّ، حدقت إليـها بشغف، لم تستطع منع نفسها من الابتسام، لا كتشافها أن ثمة غيمة تشبهها تماماً، أجل هنـاك في قبة السماء وجهـها، امرأة من غـيم تبتـسم ابتـسامة متـعالية.

١٧

ما بعد ١١ أيلول

يوقظني شعاع شمس فاجرة، يتسلل من النافذة فأول ما أشعر بقلبي المتحجر الذيّ لم يعد يعرف بهجة دفء الصباح، أفكر وأنا أنزلق من سريري أن كلمة إنسانية يجب أن تُشطب من قاموس الكلمات لأنني أشعر بأنّ ثمة كائناً ما يسكنني، وأتساءل لمَ لا يغادرني ؟ ليس هذا الكائن إنساناً على الإطلاق إذا ما طبقَتُ عليه الصفات الإنسانية التي تعلمتُها في زمن مضى.

أول طقوس صباحي إعداد القهوة، كم كان يبهجني ذلك ! لكني صرتُ أعدها بوجه متجهم. على فكرة ملامح وجهي لم تتغير، بل البعض يعتقد أنني أصبحتُ أجمل، أتأمل عينيّ كيف حلّ بهما الفتور والشك، آه.. كيف سأصف تبدل وجهي إنه يبدوكمن لم يعرف الفرح أبداً وكل ملامحي مغلّفة بوشاح الخيبة.

أجلس وحدي مع فنجان قهوتي وسيجارتي التي عدتُ لها

بعد انقطاع ثماني سنوات، اليأس والحزن أعاداني إليها، صار الحزن علامة الحياة الوحيدة فيّ. أشعر بأنّ مكتسبي الوحيد هوأن أجلس وحدي، لا تزال شاشة التلفاز سوداء، أتحداها، لا أريدها تسمّم صباحي بما تعرضه لي من وحشية لكني أكتشف غباء فكرتي إذ ثمة تلفاز صغير في دماغي لا يمكنني إيقاف بثّه يعرض لي صوراً تفوق صور التلفاز الحقيقي وحشية، كبسة صغيرة على الزر الأحمر وتبدأ المجازر، كل شيء يحتاج كي يبدأ إلى كبسة زر.

أحدق بعينين ميتتين إلى هؤلاء البشر الذين يعيشون في قلب المأساة، يصير لقهوتي طعم الموت، قصفٌ وجثث جرحى وقتلى ومشردون. . . . ثم مناظر لمسيرات تأييد، صراخ وشعارات. . ثم يطل السياسيون والحكام ببذلاتهم الأنيقة وربطات عنقهم التي أحسها علامة صارخة للامبالاة بآلام الشعوب، ما أن يبدؤوا بالكلام حتى أكبس الزر الأحمر فيعود السواد للشاشة.

حين أقوم عن كرسي أحس أنني جلستُ عليه دهراً، أغسل وجهي وأنظف أسناني، أضع معجون الحلاقة على وجهي فأحس بيأس أقرب للشلل لماذا عليّ أن أحلق ذقني والناس يموتون بمجانية ووحشية هناك في فلسطين ؟!! . . . أغسل المعجون اللزج، أتفرج على صورة الكائن البائس الذي تعكسه المرآة لا أحس بإنسانيتي أبداً، أتساءل بشك هل أنا إنسان؟! اكتشفت ذات صباح حقيقة أذهلتني وأنا ألبس بنطلوني بأنني لم أعد أجد أي فرق بيني وبين الأشياء فأنا أشعر تماماً بأنني شيء، أسعدني هذا الاكتشاف إذ حرّك البركة الراكدة في أعماقي

عظيم أن يقدر عقلي على العمل والاكتشاف، رغم بؤس هذا الاكتشاف، تُرى لماذا أشعر بأنّني شيءٌ؟! . أرّقني هذا السؤال أوهذا اللغز أظن أن الإنسان يتحول إلى شيء حين يعيش بلا كرامة، بلا عدالة، بلا حب.

هل من دلالة لهذه الكلمات ؟! . . . .

في طريقي إلى عملي أشتري الصحف لأنني لا أزال أعيش وهم أنني مثقف وكنتُ من وقت لآخر أكتب مقالات تثير الجدل، لكني لم أعد أقرأ هذه الصّحف أبداً بل أكتفي بتقليبها وقراءة العناوين الكبيرة وأحياناً قراءة برجي المتفائل دوماً، فأضحك ساخراً.

أحياناً أُجبر نفسي على قراءة مقالات لكتّاب ومحللين سياسيين مشهورين، لكني لم أستطع مرة واحدة إكمال قراءة مقال، إذاً لمَ أنا مصرٌ على شراء صحف لا أقرؤها ؟! .

اكتشفتُ بالممارسة أن الصحف تحررني من التفكير، فما أن أتناولها من بائع الجرائد حتى أحس كأن أمراً غامضاً وصل إلى عقلي بأن يكف عن التفكير!

في عملي التافه أتبادل وزملائي أخباراً مُستهلكة، نجتر الأخبار والتحليلات السياسية يحاول كل منّا أن يشعر بذاته بابتكار تعليقاته الخاصة، أحس بالخجل وأنا وسط أصدقائي إذ أؤكد لنفسي أنّني لم أعد أُحبُ أحداً، ليس لأنني أكرههم، بل لأنني تحجرتُ وما عدتُ قادراً على الإشعاع، فالانسحاق المستمر والقاسي الذي أعيشه منعني من القدرة على الإحساس حوّلني إلى لا شيء، فصار الموت الذي حولي هوالذي يغذّي حياتي، صرتُ أتلذذ بالوحدة، الوحدة العميقة الحقيقية،

ليست الوحدة أن تعيشَ وحيداً، فقد تكون وحدك لكنك تشعر بأنّ بشراً حميميين يشاركونك حياتك، تفكر بهم وتشتاقهم، أما أنا فوحدتي أصيلة لا غشّ فيها، إذ ليس في طيّات قلبي سوى ما تعرضه لي الشاشة من قتلى وموتى، لكني أشعر بطريقة غامضة بأنّ هؤلاء الذين يفجّرون أجسادهم الطرية يجعلون الموت يموت حين يتناثرون أشلاء. الوحدة التي أحياها حوّلت حياتي لما يشبه الخدر أوالنعاس الغبي، شيء مثير ألاّ تشعر بأنّك مربوط بشيء، لا حب، لا دفء، لا حقد، لا أحلام، لا ذكريات. أحس أنني أعيش في قلب شيء لا اسم له فيصير الصمت ستاراً يعزلني عمّا حولي، الوحدة الحقيقية تلغي الزمن، كنتُ أهتم للزمن لأنني كنت أحلم وأخطط لمستقبل وأريد إنجاز أهداف... أما الآن فحين أصير متسولاً، مهمشاً، فما قيمة حياتي كيف أعيشها ؟! يكفي أن أعرف كيف أمثّلها.

تلومني زوجتي برقة وتتهمني بأنني لم أعد أحبها، أضحك من سذاجتها، أتمنى لوأصرخ بوجهها: ليت الأمر يتوقف على أني لم أعد أحبك، فأنا لم أعد شيئاً يا امرأة. لكنها مصممة على إحياء علاقة ماتت، صارت تلبس قمصان نوم شفافة وتجرّب كل أنواع الحمية لإنقاص وزنها، تكثف عطرها وتلمسني فتؤكد لي مداعباتها كم أنني ميت، فالموت يبدأ بالانغلاق، أعذريني يا زوجتي المسكينة فروحي مغلقة داخل محارة.

حتى حين أضطر لممارسة واجبي الزوجي أشعر بأنّني ألمسها ولا ألتقيها أبداً، المسافة بيني وبينها أميال !... لكنها

عنيدة، مصرة على أن تخرجني من أزمتي النفسية التي تعتقد مستندة على قراءاتها التافهة أن مشكلتي هي أزمة منتصف العمر (التي يعانيها الرجال بسبب تناقص قدرتهم الجنسية في منتصف العمر) تزجنّي في نشاطات اجتماعية، وسهرات أحسها كمباريات في الكلام. أعود من تلك الزيارات أكثر عزلة مما أنا.

صرتُ أرغب في التواري فحين ألتقي بمعارف في الطريق أسارع لتغيير طريقي وذات مرة لمحت صديقاً غير بعيد أدهشني ردّ فعلي، إذ أسرعتُ أختبئ في مدخل بناية حتى عبرني.

لا أشعرُ بأنّني أخون أحداً، فقد كسرني هذا الزمن رغماً عني، أشعر بأنّي أتسكع في الشوارع وهوالفعل الوحيد الذي أحسه خارجاً مني، أشعر بأنّني أسيرُ قربَ حياتي ولاشيء يجمعني بها، بل ثمة خصامٌ غامضٌ بيننا، ولا أمل بالحوار، أتخيل علاقتي بحياتي كعلاقة أفعى بجلدها القديم الذي نزعته لكن الأمر يلتبس عليّ، إذ لا أعرف من منا الأفعى أنا أم حياتي؟؟؟.

ذات صباح أيقظني صراخ زوجتي أنّها اكتشفت دوائي، اسمع ما يقول الكاتب: إنّ التمزق النفسي الذي يشعر به البعض - مثلك - دليل أن في النفس حياة.

ضحكت حتى سالت دموعي، آه!.. كم كان ضحكي يخفي حزناً مريراً.

لا أبالي بكلامها، فأنا لا أجد أي معنى لتقييم حياتي لأنها رُسمت لي رغماً عني، لكن ما يحيّرني سرُّ تلك المشاعر المضيئة التي تباغتني فجأة كأنها إلهام إلهي، أهي إلهامٌ إلهي أم

خدعة؟؟ . . . ما معنى أن تمتلئ عيناي فجأة بدموع الوجد والإيمان لأشياء غامضة عرفتها فيما مضى وكنت مستعداً أن أموت في سبيلها، ما معنى شعوري أني أنتظر نتيجة حاسمة، نتيجة انتصار الخير على الشر والحب على الحقد. . . . تخطفني تلك اللحظات إلى عوالم حية دافئة، آه ! . . ما أحلى الدفء البشري.

في مكان ما من روحي نارٌ متأججة أؤكد لنفسي وأنا ألتهبُ حماسة أنه ليس مثل المنكسر من يعرف الحق والعدل. تضيع تلك اللحظات، لا أعرف كيف!! أعود لتحنيطي الأبدي، أُسلم نفسي للمتاهات، أتوهم أنها ستوصلني إلى الراحة، إلى اليقين وأنّها ستعيد إليّ إحساسي بإنسانيتي أصرخ بصوت يائس مرتعش بالشك: أنا إنسان، أنا إنسان. . . . فيمتلئ الفضاء أمامي بفقاعات صابون ملونة كثيفة سرعان ما تتلاشى.

أتأبط هزيمتي، لم أعد أجد تناقضاً بين الموت والحياة، فحياتي موت، وما عاد يسكنني سوى صورهم، صور هؤلاء الأشبه بالمسيح المصلوب، ممزقين، جثثهم تتعفن في العراء ولا تجد من يدفنها، صرتُ أشعر بأنّي أنتظر نهاية حياتي من خلال حياتهم كأني أنتظر لحظة أفجّر نفسي أوتفجرني قذيفة، فأصير مثلهم يكفنني الذباب.

صرتُ أتخذ زخم يومي من الكره، فأشعر كل صباح بأنّي أشبه ببطارية فارغة، ثم أبدأ بشحنها بالأحقاد، أحقد على نفسي المشلولة العاجزة عن فعل أي شيء، أحقد على أصحاب القرار المتملصين من المواجهة، أحقد على الملايين أمثالي الذين لا يملكون سوى الصراخ وحرق الأعلام وصور شارون

التي يرسمونها على شكل قرد، حين يطل علي هذا السفاح مراراً عبر الشاشة أشعر كل مرة بأنّ وزنه يزداد بعد كل مجزرة، لعل هذا وزن آثامه.

نار تأكل روحي دوماً، لم أعد أعرف ما الذي يتآكلني أهوالحب أم الغضب؟ هل يمكن أن يحدث التباس بينهما؟ نسيتُ لغتي فكل مفرداتي شتائم، صرتُ لا أحس أني أعيش إلا من خلال سيل مربع من الشتائم على كل شيء. وأحياناً تزداد تقارباً تنتابني نوبٌ هستيرية فأدخل الحمام أعضّ على منشفة كي أخنق صراخي، وأبدأ ببكاء أشبه بالطوفان لدرجة أشعر بأنّي كيس ممتلئ بالدموع، في تلك اللحظات أسمع صراخ كل المظلومين ينطلق من حناجرهم صراخ أليم بلا شعارات، مجرد كلمة واحدة: نحن بشر.

لا أجد معيناً لي في تلك النوب سوى الخمر، هذه روعة الخمر أنه يجعلني أتلاشى، كم أحتاج إلى أن أتلاشى، لكني قبل أن أستسلم لغيبوبة الكحول يأتيني يقين راسخ أنني سأولد من موت.

١٨

أحلام على الريق

حين علمت غيداء أن وزير التعليم العالي سوف يكرّم المتفوقين بنفسه، ويقدّم لهم درع الثقافة جُنّت من الفرح، كانت ابنة الثلاثة والعشرون ربيعاً مفتونة بالوزير الأربعيني الوسيم تتابع مقالاته الصحفية والتلفزيونية وتعلن للجميع أنه الرجل الحلم بالنسبة لها. كانت تصريحاتها تُقابل بالابتسام فما تقوله أحلام مراهقة. كانت غيداء واحدة من العشرة الأوائل المتخرجين من كلية التربية وعلم النفس، وحين تلقّت الدعوة للتكريم وسط حفل ستبثه ثلاث قنوات تلفزيونية اهتاجت من الفرح وأسرعت تتفرس في صور الطالبات المتفوقات لتؤكد لنفسها أنها الأجمل. ثم شغلت أمها وصديقاتها ماذا ستلبس في حفل التكريم؟ المقرر في أفخم فندق في العاصمة، كان سفرها وإقامتها على حساب الوزارة وطوال ساعات السفر الطويلة بين مدينتها البسيطة والعاصمة كانت تحلم كيف سيكون لقاؤها مع الوزير، كيف ستتصور

معه، ماذا سيقول لها؟ وماذا ستقول له؟ حاكت مئات السيناريوهات عمّا يمكن أن تقوله لسعادة الوزير لكنها استسلمت للتعب ونامت وهي تحلم أحلاماً مشوشة بأنها ترقص رقصة حالمة مع الوزير بطريقة تنعدم المسافة بين جسديهما.

كانت الوزارة قد حجزت للمتفوقين من خارج العاصمة في فندق خمسة نجوم وحين دخلت غيداء غرفتها صدمتها الفخامة ورغم إحساسها بالجوع فلم تستطع ابتلاع لقمة، أحست أنها متخمة بالشوق للوزير.

كان الحفل فخماً يضم أساتذة من كلية الآداب والفلسفة، ألقى عميد الكلية كلمة مؤثرة كذلك معاون الوزير ثم تقدم الوزير الأنيق إلى المنصة وارتجل كلمة سحرت الحضور مبيناً رعايته الخاصة للمتفوقين وتشجيعه للبحث العلمي الذي هوأساس تطور المجتمعات، لم ترمش غيداء نظرها عن سعادة الوزير طوال الوقت، تتأمله بافتتان شاعرة بأنّ أنفاسها مخطوفة، ثم بدأ سكرتير الوزير يذيع أسماء المتفوقين واحداً واحداً، شعرت غيداء بأنّها تطير حين أُذيع اسمها ولم تعرف إن لامست قدماها الأرض أم طارت إلى المنصة، كيف صافحها الوزير وقدّم لها الدرع، ماذا قال لها؟ كيف كان شكل ابتسامتها، لا تتذكر شيئاً سوى أن لمعاناً غريباً أشبه ببرق اشتعل بين عينيها وعيني الوزير.

ثم خيّل لها أنّه ضغط بقوة على يدها وهو يصافحها وطوال السهرة كانت محط نظراته المُعجبة وبدورها كانت تتابعه بنظرات ولَه كيفما تحرك.

أسهدها شوقها للوزير طوال الليل، شوق أشبه بالحمى جعلها تتذكر تلك المرات القليلة التي كانت تصاب فيها بالحمى وتهذي معترضة على كمادات الثلج والخل التي تلصقها أمها بجبهتها.

صباح اليوم التالي كان مقرراً أن يذهب المتفوقون إلى مكتب الوزير ليشكروه، انتظر الطلاب ساعة ونصف لأن سعادته مشغول باجتماع هام، ثم طلبت السكرتيرة من كل طالب أن يدخل بدوره ليشكر الوزير، وحين حان دور غيداء ودخلت مكتب الوزير مصعوقة من اتساعه وفخامته والذوق الرفيع لأثاثه والنباتات النادرة في زواياه وجدت نفسها واقفة في منتصف الغرفة مذهولة مبهورة الأنفاس، تقدم منها الوزير فمدت له راحة ببرودة الثلج، أحاط خصرها بذراعيه وطبع قبلة ملتهبة طويلة على فمها قبلة أشعرتها بأنّها استنزفت كل قواها أحست أنه انتزعها من مجال جاذبيتها وألقاها في جاذبية أخرى، تحسست يداه جسدها الرشيق قبلّها مجدداً في عنقها ووجهها وفمها قبلات أكثر جرأة واقتحاماً. لم تكن تعرف أن افتتاناً مجنوناً يسطع من نظرتها إلا حين لمحت صورتها عَرَضاً في مرآة الحائط، قُرع الباب، فانتفضت غيداء مذعورة، أما الوزير فلم يكترث. دخلت السكرتيرة تستأذنه بدخول الطالب التالي، لم يطلب الوزير من السكرتيرة التريث أومأ برأسه موافقاً، غادرت غيداء مكتبه مسحورة وهي تنظر إلى الوزير نظرات متعبّدة وطوال رحلة العودة إلى مدينتها التي أحستها - مسكينة مثلها - كانت حالمة الهيأة، ذاهلة ولم تستطع الرد على أسئلة أهلها الفضولية عن حفل التكريم بل

تعللت بالتعب.

لم تتخيل أن قبلة الوزير ستسحرها فكلما استعادتها تدخل في حالة تأملية أقرب للانخطاف تحاول التعبير عمّا تحسه بالكلمات لكن عبثاً، ثمة استحالة في ترجمة مشاعرها لكلمات فتلك القبلة لانهائية، لها صدى أبدي وعبق يزداد كثافة كل صباح إنها كل صباح تستعيد نشوة تلك القبلة على الريق وقبل أن تشرب الماء وصارت كلما رأته على شاشة التلفاز تغدوعيناها شهوانيتين ويلتمع في سوادهما حريق عاطفة مكبوتة ومتأججة دوماً. ثم صار يضنيها إحساسها الدائم بتأثير تلك القبلة لدرجة تشعر أحياناً بأنّها شبه منهارة.

تعلّقت بالوزير بجنون، فكان يُلهبها عن بعد كأنه يملك جهاز تحكم بعواطفها أحبته بجنون بعد تلك القبلة، شعرت كأن روحه نفذت إلى روحها من خلال تلك القبلة ووشمت خلاياها.

وفي كل مرة تستعيد سحر القبلة اليتيمة تشعر بهزة عميقة في كيانها، لأيام عاشت مذهولة لا تعرف تفسير ما حدث، لماذا قبلّها الوزير؟ لماذا تحسست يداه جسدها؟! هل هذا طبيعي؟ هل يحق للوزير دون استئذان أن يقبّل زائراته! لكن ألم تكن سعيدة؟! بل كانت أكثر من سعيدة مبهورة ومنخطفة لعالم يضجّ بالإثارة والنشوة، إنها لم تعرف مشاعر بتلك الحدة طوال حياتها هذه القبلة وسام امتياز عظيم لها اعتراف بأنوثتها وجمالها من قبل رجل عظيم، نغصتها فكرة أن يكون قد قبّل غيرها من المتفوقات لكنها طردت ذلك الاحتمال البشع من ذهنها مؤكدة لنفسها أنها الوحيدة التي أثارت

إعجابه.

بعد أسابيع من تلك القبلة السحرية صار هاجس غيداء لقاء الوزير ثانية، لم تفكر أبداً بأنّه متزوج ومرتبط بأسرته، لم تفكر بأنّ فتاة في سنّها يفترض أن ترتبط بشاب تحبه يقاربها في السن، تلك القبلة بلبلت كيانها تركت في روحها حريقاً لا تعرف كيف تخمده.

وبدأت تساؤلات كثيرة تعذبها، ألا يشتاقها الوزير؟ لمَ لا يحاول الاتصال بها؟ هل يفكر بها؟! ألا يشتهي قبلة أخرَى؟ صارت تشعر بالمهانة لأن الحبيب يهملها وعانت آلام الحرمان والنبذ بأقسى أشكالها، مرّ شهر لم يحاول الوزير الاتصال بها، كان قد أعطاها بطاقته الخاصة فأمكنها الاتصال بمكتبه مباشرة، ردت السكرتيرة بصوت آلي تعلمها أنه خارج القطر وقد يرجع بعد أسبوع.

مرّت ثلاثة أسابيع على عودة الوزير ولم يتصل بها أدهشها أن لا مبالاته تزيد تأجج مشاعرها وتزيد إحساسها بجرح كرامتها، تتساءل متألمة: من أنا بالنسبة له، ألا يحبني؟ لماذا قبلني إذاً؟ أنا رهن إشارته ليرفع السماعة ويقول كلمة واحدة فقط، تعالي، وسأكون بين يديه.

أحست بالانكسار فالأيام تتوالى والوزير لا يتصل، اتصلت به وفي نفسها صراع وإحساس بالمهانة تشعر بأنّها أسيرة قوة أقوى منها، قوة تجبرها على الانصياع لذلك الهوى الجارف أتاها صوت السكرتيرة تخبرها أن سعادته في اجتماع ونصحتها أن تتصل به بعد ساعتين ذرفت دموعاً سخية طوال الساعتين وهي تشعر كم أوهنتها عاطفتها، عاودت الاتصال منتبهة كيف

غدا صوتها كالأنين، طلبت إليها السكرتيرة أن تنتظر قليلاً، كادت تيأس أنها ستسمع صوته إلى أن باغتها يقول بعفوية: آسف حبيبتي، كيف حالك.

هل حقاً قال لها حبيبتي، لويعرف أنه قذف بها من قاع وادي اليأس إلى قمة جبل الأمل، دبت الحيوية في روحها الذابلة، امتلأت بالفرح والنور كمن فتح ثقباً في روحها المحتقنة، انفجرت بكلام سريع كأنها تخشى ألا تتمكن من قوله، تتكلم كمن تسقط في هوة ولا تبالي بالعواقب، أخبرته أنها مشتاقة إليه كثيراً وأن تلك القبلة لا تفارق خيالها وأنّها تعبده وتتمنى لقاءه ثم صار صوتها أشبه بالصراخ وهي تعاتبه لأنه لم يحاول مرة واحدة الاتصال بها، اختنقت روحها بالدموع - هكذا شعرت - وهي تسأله وقد ترقق صوتها ترققاً غريباً: ألا تحبني؟ أتاها ضحكه الذي آلمها وأثارها في الوقت نفسه: أنت هائلة، لكن ينقصك شيء واحد، صرخت نافذة الصبر: ما هو؟، أن تعرفي ماذا يعني وزير، أن تقدري أشغالي، سألته شاردة: هل أنا حبيبتك حقاً، أم تقول تلك الكلمة هكذا.

قاطعها: اعذريني، مضطر أن أنهي المكالمة، سنتحدث فيما بعد.

أغلق السماعة قبل أن يسمع ردها، تاركاً إياها في حالة اختناق من ذلك الزحام الرهيب من الخواطر المشوشة والإحساسات المضطربة، حاولت التمسك بكلمة «حبيبتي» كغريق يتمسك بقشة لكنها عجزت تماماً عن إدخال أي قدر من السلام إلى روحها، لا تعرف مسك طرف خيط أفكارها.

صارت عصبية تتشاجر مع كل من حولها وتستثار من كل

كلمة، رفضت بشراسة التعرف بالطبيب الشاب الذي تقدم لخطبتها والذي يؤكد كل من يعرفه أنه شاب ممتاز، أحست أنها تصدّه كما يصدها الوزير، فهي تنتقم من هجران الحبيب بتعذيب شاب يحبها، تملكها هاجس طاغ أنها مصرة على رؤية الوزير ثانية لتنتزع منه اعترافاً بقيمتها، تعلّقت به كرمز للرجولة والإثارة ولم يزدها الوقت سوى التهاب وعناد.

مرّت أسابيع ولم يتصل بها الوزيرُ كماً وعدها، عاودت الاتصال بعناد الحب اليائس بمعاناة وآلام الحبيب المرفوض، وبعد محاولات عديدة سمعت صوته، لم تعاتبه بل حددت هدفها: متى سأراك؟

- في أي وقت، قالها بلا مبالاة.

- أصرّت: حدد وقتاً.

راوغ متعللاً بأشغاله وعدها بأنّه سيتصل بها خلال أيام ليخبرها عن اليوم والساعة، عاشت الأيام التالية بحالة هياج واستعانت بالحبوب المهدئة التي تستعملها أمها، لم تنتظر أن يتصل بل كلمته فاقدة الصبر فقال لها تعالي غداً. حاكت كذبتها بيسر وسافرت إليه، وصلت مكتبه منهكة من الانفعالات تحس بعطش شديد، كانت تتخيل أنها ستسعد سعادة جنونية حين تراه، لكن ما أن واجهته حتى أحست أنها تهوي في قاع بئر لا قرار له، في عينيه جمود غريب لم تجد له تفسيراً، عيناه بلا تعبير بلا شوق، خنقَ في نفسها للحال الرغبة بالبوح تشوشت نظرتها المتعبّدة له، ولم تستطع أن تتكلم إلا بكثير من العناء، سألها ببرود مهذب ماذا تشربين؟ قالت بصوت واهن: ماء. استمرت تحدق إليه لِمَ لا يقبلها، ما به

جالساً وراء مكتبه متعالياً وضجراً، فجأة قرأت في عينيه الحقيقة: إنها لا شيء.

انفرجت شفتاها قليلاً من ذهول ما تعانيه وبعد جهد قالت: كنت أعتقد أنك تحبني كما أحبك.

امتعض وهويرد: لا أفهم حباً يقوم على اللاشيء.

غامت الدنيا أمام عينيها ودت لوتصرخ به: لماذا قبلتني إذاً؟ لماذا داعبتني؟

قرأ ألمها في عينيها، قال مؤاسياً: لا تزالين صغيرة، وتجاربك في الحياة قليلة، خذي الأمور ببساطة، ولا ترهني نفسك لموقف عابر.

انفجرت بالبكاء فلم يتأثر كان ينظر معظم الوقت إلى خاتمه الضخم ذي الحجرة الخضراء العملاقة أحست في داخلها سُماً، لم يكلف نفسه بمسح دموعها ولم يمد لها منديلاً، أكثر ما يؤلمها إحساسها أنه لا يحترمها، أي جنون دفعها إليه، ولماذا طبع تلك القبلة الملتهبة على فمها؟ أكان يلهو؟ أم أحب أن يتذوقها؟.

أمامها أيام طويلة لفك ألغاز تساؤلاتها، استأنفت حياتها مكسورة الخاطر، مُهانة، وقبلت الخطبة للطبيب الشاب لكن قبلات الخطيب لم تسحرها كقبلة الوزير، إنها لا تزال أسيرة تلك النشوة الهائلة التي تتذوقها كل صباح، بل مرات عديدة في اليوم.

ذات صباح وفيما ترشف قهوتها مستعيدة كالعادة نشوة القبلة السحرية، سمعت المذيع يُعلن أن حدثت تغيرات في الوزارة وأن وزير التعليم العالي نُحي من منصبه، واستبدل

بآخر، ارتجف فنجان القهوة بقوة في يديها، فجأة أحست بالشفاء وتحررت من تأثير تلك القبلة بل أحست أن في تلك القبلة وقاحة وانتهاكاً لكيانها وأن شفتي الوزير ذابلتان وطعم شفتيه منفّر.

تمطت بسعادة ونشوة، سعادة من يشفى من مرض مستعص، آه لقد شفيت من سحر قبلة الوزير الذي ما عاد وزيراً.

١٩

إلى آيات الأخرس

لم يسبق لسهى أن عرفت مثل هذه المشاعر، كانت في عمر الشهيدة الَتي فجّرت جسدها، فحين أطلّت عليها صورة آيات الأخرس من شاشة التلفاز، شهقت سهى من عمق الشبَه بينهما، كانت تشرب الحليب القليل الدسم الذي تمزجه بقليل من الكاكاو، وتأكل الكعك المغطى بالسمسم، حين فاجأتها صورة آيات تبتسم بفرح على خلفية من صوت قصف معدني بارد، وصوت المذيعة الحيادي التي ذكرت في أقل من دقيقة كيف أن آيات فجّرت نفسها.

أحست سهى بالخجل لأنها تُفطر، وبيد مرتعشة وضعت كأس الحليب جانباً، وهبّت واقفةً لتحدِّق الى كلّ كيانها في الشاشة. كانت رائحة لحم مسلوق تتسرب الى أنفها من المطبخ، ورغم خُواء ذهنها فإن سؤالاً أشبه بفقاعة تفتّق في فراغ روحها: ترى ما رائحة لحم آيات الأخرس وهو يتفتت بالانفجار؟!.

لم تستطع سهى إكمال فطورها، ولم تعرف تفسير شعور العار الذي جلّلها. وحين وقفت أمام المرآة تمشّط شعرها وتعقصه في ضفيرة حتى منتصف ظهرها، أحست أنها مهشمة الوجَه، بل شعرت بأنّها ترى الشهيدة في المرآة، ابتسمت آيات وقالت لسهى: عيشي بدلاً عني، فأنا تلاشيت، تفتتُّ، نثرت جسدي بذور أمل في أرض فلسطين. كان اضطراب سهى عظيماً رغم تعبير الهدوء في وجهها، ولم تستطع السيطرة على رجفة خفيفة في حنكها وراحتيها. حملت حقيبتها المدرسية كعادتّها، حّين لاحقتها أمها بالدعاء الصباحي المعتاد، أشاحت بوجهها كي لا تلمح الأم قطرات دمع عالقةً بأهدابها، فكرت في أن آيات الأخرس لن تسمع صوت أمها أبداً.

جلست في مقعدها شاردة الذهن، كانت مدرِّسة العلوم تشرح بحماسة (الاصطفاء الطبيعي)، فكّرت سهى وهي تخربش دوائر سّوداء متشابكةً، في ان الطبيعة اصطفت الوحوش، وبيد حذرة أخرجت منديلاً ورقياً من جيب سترتها، والتقطت دموعًها متظَاهرةً بأنّها تتمخط، لم تكن قادرةً على صرف خيالاتها وأفكارها عن آيات...

أدهشها أن آيات تبتسم ابتسامةً حقيقيةً! ترى لمن تبتسم؟! ابتسامة فيها ثقة وفرح حقيقيان... وعجباً هل كانت تعرف أنها ستفجّر نفسها وهي تبتسم؟.

تكاثرت الدوائر السوداء الفارغة التي ترسمها سهى وهي تفكّر في أن آيات لم يعد بإمكانها أبداً الذهاب الى المدرسة، والتسامر مع صديقاتها! طعنتها تلك الحقيقة كسكين ينغرس في قلبها.

قلّبت سهى صفحات دفتر العلوم بعصبية. وفجأة لمحت البطاقة الوردية، هوى قلبها وهي تستعيد تلكَ اللقطة المحفورة في عمق روحها، يوم تلقت أول هدية حب، كان أخو صديقتها، يكبرها بعامين، اكتشفت حبه لها مِن ملاحظتها لاحمرار أذنيه الشديد كلما رآها.

تذكرت كم كانت تطيل الوقوف أمام المرآة حين تفكر باحتمال لقائه، وبعد عامين من صمت النظرات الدافئة والابتسامات الخجولة المباغتة، تشجع وأعطاها علبةً صغيرةً ملفوفةً بورق فضي لماع، في قاع العلبة شريط فيروز الجديد (كيفك أنتَ)، ووردة حمراء رائعة وبطاقة وردية كتب في وسطها إسمها وأحاطه بقلوب حمراء كثيرة.

داخت وهي تتلقى أول إعلان حب، كانت مندهشةً من هذا الزخم الهائل من المشاعر الغامضة التي تفجّرت من نبع خفي في روحها، كتبت يومها في دفتر مذكراتها أنها أُحستْ بالأبدية. أجفلت متنبهةً لصوت مدرّسة العلوم، دفنت البطاقة الوردية في قاعة حقيبتها سقطت دمعةٌ حارقة على ظهر يدها وهي تفكر إن كانت آيات قد أحبت؟ أو تلقت هديةً في عيد الحب؟ ترى هل هناك عيد للحب في فلسطين، أم عيد للدم؟!.

ما كان لسهى أن تعرف أن نظرتها تفيض يأساً وضياعاً، إلا حين انقضّ عليها صوت المدرّسة تسأل: سهى ما بك هل تشكين من شيء؟.

انتصبت التلميذة واقفةً، همّت بأنّ تتكلم، لكن صوتها انكسر، فأومأت برأسها وأشارت الى معدتها... كانت تحب

مدرّسة العلوم لأنها تعامل طالباتها برقة وتفهم.

اقتربت منها المدرّسة وربتت على كتفها هامسةً: هل تشكين من آلام الدورة الشهرية؟

هزت سهى برأسها واستأذنتها بالخروج قليلاً من الصف.

مسحت المدرّسة رأسها بحنان، فكرت سهى في أن رأس آيات قد تفتت وتناثر أشلاء، ولم يكن بعد بإمكان مدرّستها أو أمها أن تلمسا رأسها...

خرجت سهى من الصف، وشعورٌ غريبٌ يخنقها، كانت تحس أن شيئاً من عدم التصديق يشع من كيانها كله، إن كل شيء يبدو عصياً على الفهم، إنها لا تصدق شيئاً، ترى هل حقاً تدورُ الأرض حول الشمس؟! باحة المدرسة خاوية، شعرت سهى بأنّها تسير على رمال متحركة، حاولت ان تهدئ روع نفسها المضطربة، لكنها شُعرت بالعَجز، وبالحاجة العميقة لعون ما، كانت سهى معتادةً أن تحاور ذاتها مهما كانت منفعلةً وغاضبة أو حزينة، وتنجح كل مرة في تنقية روحها من المشاعر التي تعذّبها، وتنجح دوماً في خلق حوار مع ذاتها كأنها تستنسخ صديقةً من روحها، أما الآن فقد أصابها داء الخرس.

استبد قلقٌ عظيمٌ بسهى، قلق أشبه باليأس، مشت باتجاه الشجرة العملاقة الوحيدة في الباحة الخلفية للمدرسة، جلست تحتها مبلبلة الحواس، رفعت نظرها إلى السماء، كلما أحست بضيق ترفع رأسها نحو السماء، فيفتنها هذا الأزرق اللامتناهي، حين كانت طفلةً كانت تتخيل السماء سقفاً أزرق وأن درجاً طويلاً يوصلها إليها فتسأل أمها: أين الدرج الموصل إلى السماء؟.

تضحك أمها وتقول: إنه في خيالك.

خنقتها غصّةٌ وهي تتساءل: هل روح آيات فوق؟!.

فجأةً قفزت ذكرى بعيدةٌ - اعتقدت أنها نسيتها - إلى ذهنها، تذكّرت يوم زلّت قدمها وهي تمشي على صخور الشاطئ، وكادت تسقط، تذكّرت هول الرعب الذي أحسته، والألم الشديد في عقبها، تساءلت تُرى ما حجم الخوف الذي أحسته آيات قبل أن تفجّر جسدها؟

لماذا يا آيات، لماذا هشمت وجهك الحلو، والجسد الطري؟! ترى ما آخر صورة عبرت ذهنك يا آيات قبل أن تتناثري أشلاء؟ وجه أمك، أو وجه حبيبٍ ربما كان في طريقه اليك حاملاً وردةً بلون دمك؟.

فقدت سهى تسلسل أفكارها، كانت تزداد اضطراباً وتمتلئ فوضى، لم يعد يهمها الألم الذي تحسه... ما أفزعها شعورها أنها منتهكة الكرامة، شيءٌ ما في تفجير آيات لنفسها أشعر سهى بأنّها بلا كرامة. أحست أن سنواتها السبع عشرة التي اعتقدت أنها آمنة ومستقرة وممتلئة ثقةً بالمستقبل، قد تبخّرت في لحظة. ترى ما الكرامة؟ ما الحياة؟.

أجفلت سهى وهي تشعر بسقوط شيء من الشجرة في حضنها، قفزت واقفةً بغريزتها فسقط الجسم الصغير من حضنها على الأرض... كانت سنونوة متشحة بالدم الذي يغطي أطراف بطنها ويتناثر على أطراف جناحيها، انحنت سهى، وحملت الطائر الرقيق الذي لم يؤذ أحداً في حياته، صدمتها برودة السنونوة قلّبت العصفورة بيديها وصورة آيات لا تفارق ذهنها، اصطدمت سبابتها بجسمٍ معدني منغرس في

صدر الطائر، حاولت انتزاعه، لكنه كان عالقاً بقوة بالقلب المـمزق ألماً، لم تعرف سهى مدى إصرارها علىّ انتزاع الطلقة، وتمكنت بعد جهد من سحبها خارجاً، فذهلت من تدفّق مئات الفراشات الملونة من قلب السنونوة. فراشات رائعة الألوان حلّقت عالياً عالياً في السماء ثم انتظمت في سرب راسمةً آيات. . .

كانت سهى تشرئب بعنقها، خافقة الفؤاد تريد أن تبلغ السماء لتعانقَ آيات. . . ابتعد سرب الفراشات وحلّق عالياً، فركضت سهى تلحق به وهي تصرخ بكل طاقة كيانها آيات، آيات. . .

همدت سهى فجأةً إذ اصطدمت بقوة بسور الباحة، ففهمت للحال معنى السجن، كان سربُ «آياتٍ» قد غدا نقاطاً صغيرةً لمّاعةً تسبح في حضن السماء الذي هو حضن الله كما همست سهى لنفسها.

المطابع التعاونية الصحفية ش م ل، بيروت، لبنان
أيلول ٢٠٠٣

كـــانت تنتظره بكامل أهبتها الروحية والجسدية، وقد أجّلت وضع الـــقناع المغذي للبشرة حتى موعد حضوره، لتكون أكثر ما يمـــكن طازجة وجديدة حين تلقاه، لم تكن تعرفه الا مـــنذ زمن قصير معرفة سطحية لا أكثر، كانا مثقلين بخيبات التجارب الحياتيـــــة – العاطفيـــة خاصة – تلك الخبرات التي تعطي الإنســـــان موهبة فهم أعمـــاق الآخر من مجرد النظر في عيـــنيه. كانت تشعر بأنه مضى دهر لم تحب رجلاً، ولم يلمسها أحد، تلمس جلدهـــــا فتحسه جافاً كالقش، لم تعد تطيق أن يظل الرجل مجرد حلم، انها تريده واقعاً...

"غروب وكتابة" مجموعة القصص الثانية (بعد "ضجيج الجسد") التي تصدر لهيـــفاء بيـــطار – الروائيـــة وطبيبة العيون المولودة في اللاذقية– عن دار النهار، وهي تضم تسع عشرة قصة.

9 782842 894467